

"تسليم نحوي"

النَّحْوُ بَيْنَ الْإِسْتِخْدَامِ وَالِدَّلَالَةِ
قِرَاءَةٌ فِي رُؤْيَا عَبْدِ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيِّ لِلنَّحْوِ الْعَرَبِيِّ

**Syntax between Use and Semantics
(Reading on Vision of 'Abidalqahir Al-Jarjani
for Arabic Syntax**

أ. د. مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ أَبُو عَلِيٍّ

Prof. Dr. Múhammad Mahmoud Abuali

مصر / جامعة دمنهور / كلية الآداب / قسم اللغة العربية

Egypt/ University of Damanhour / College of Arts

Dept of Arabic

DR_ABUAALI@YAHOO. COM

خضع البحث لبرنامج الاستئلال العلمي
Turnitin - passed research

مُلَخَّصُ الْبَحْثِ:

يهدف هذا البحث إلى بيان دور عبد القاهر الجرجاني في تأكيد عبقرية النحو العربي بمعناه الإبداعي لا مجرد القواعد والحركات.

وغير خاف أن أوائل النُّحاة صنيعهم عَقْلِي مَنْطِقِيّ، مُوَلِّعٌ بالتقسيم الشكلي والقياس المُتَّبِع، أكثر من تَعَلُّقِهِ بالعلاقات المعنويّة، والنحو - عندهم - هو المُحَدَّد للدلالة، بوصف النحو صناعة لفظية منطقية، خَلَطَ فيها النُّحاة بين خصوصية عِلْمِ النحو العربيّ، وعُمُومِيَّةِ المنطق ؛ فصار يُؤْخَذُ بأسباب المنطق والفلسفة في شرح عِلَلِ النحو.

وهذا القياس ناقص، وعلى الرغم من ذلك النَّقْصُ فقد أقاموا عليه قواعد كُلِّيَّة، وبه أهدروا كثيرًا من الاستعمالات التي نَطَقَ بها العرب؛ ممَّا أدى إلى اتِّصافِ النحو بالجمود والجفاف.

وقد تضمن البحث تمهيدًا، وأربعة مباحث، واشتمل التمهيد على اختلاف القُدَمَاءِ فِي شَأْنِ النحو، ورصد المَبْحَثُ الأوَّلُ: مَوْقِفَ السَّيْرَانِيّ وَعَبْدِ الْقَاهِرِ مِنَ النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ، وعرض المبحث الثاني: النحو الإبداعيّ، ودور عبد القاهر التجديدي في (الدلائل)، وعالج المَبْحَثُ الثَّالِثُ: تَجَاوُزَ عَبْدِ الْقَاهِرِ السَّابِقِينَ فِي رُؤْيِيهِ لِلنَّحْوِ، وتناول المَبْحَثُ الرَّابِعُ: نَظَرَةَ عَبْدِ الْقَاهِرِ التَّوْحِيدِيَّةَ لِلغَةِ.

تجاوز عبد القاهر مفهوم النحو عند القدماء ؛ لأن النحو - عنده - أصبح طريق الوصول إلى إعجاز القرآن، والصاد عنه والمزهد فيه، صَادٌّ عن كتاب الله.

وقد أثبت البحث اختلاف مفهوم عبد القاهر للنحو عن سابقيه ؛ وذلك لأنه باحث عن فروق بين أشكال ثابتة في الدلالة على المعنى، وتعلُّقُ الْكَلِمِ بَعْضُهَا

بِبَعْضٍ؛ لَذَا كَانَ حَرِيصًا عَلَى بَيَانِ الْفُرُوقِ الْجَمَالِيَةِ لِلنَّحْوِ الْإِبْدَاعِيِّ، وَتَحْلِيلِ تِلْكَ الْفُرُوقِ الَّتِي تُكُونُ نَحْوًا إِبْدَاعِيًّا، لَا تَعْقِيدِيًّا أَوْ تَعْقِيدِيًّا.

وَقَدْ اتَّبَعْتُ مِنْهَجًا تَارِيخِيًّا تَحْلِيلِيًّا مُقَارِنًا، يُؤَرِّخُ لِلْقَضَايَا مِنْ خِلَالِ تَتَبُّعِ تَفْصِيلَاتِهَا الْجَزْئِيَّةِ وَالْكُلِّيَّةِ، وَتَوَقَّفْتُ عِنْدَ بَعْضِ الشَّوَاهِدِ الَّتِي اتَّخَذَ مِنْهَا عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ دَلِيلًا عَلَى إِبْدَاعِيَةِ النَّحْوِ فِي نَظَرِيَةِ (النَّظْمِ).

الكلمات المفتاحية: النَّحْوُ، الاسْتِخْدَامُ، الدَّلَالَةُ، عَبْدُ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ

Abstract:

This research presents a critical reading of Abd al-Qaher al-Jurjani's vision of Arabic grammar. The focal point of Jurjani's vision of Arabic grammar is the semantic meaning of reading a text. To achieve this goal, the research broaches a comparison between two grammatical trends. The former is based on the traditional view of using the grammatical rules in order to achieve linguistic correctness and to clarify the meaning. The latter is an unconventional trend dependent on logic to reach the depth of semantic meaning and identification of the syntactic function of words, which is the direction of Al-Jurjani in grammar.

Keywords: Abd al-Qaher al-Jurjani al-Sirafi, Arabic grammar, syntactic meaning, unconventional trend, syntactic function of words

المُقَدِّمَةُ

قرأ الإمام عبد القاهر الجُرْجَانِي (ت ٤٧١هـ) التُّرَاثَ قِرَاءَةً واعية؛ بمعنى أنه سَبَرَ أعماقَ كُتُبٍ غَيْرِهِ مُنَاقِشًا مُحَلِّلاً مُسْتَنْتِجًا، وكان من ثمار هذه القراءة أن عدَّلَ في أفكارٍ سابقية؛ أي لم يقبلها كما هي، ولكن أضاف إليها من عنده، ومن ثَمَّ كانت قراءة مُنْتِجَةً.

فقد رَفَضَ بَعْضُ ما ساد في التراث الذي قرأه، مثل ما فعله مع مبحث (التقديم والتأخير) الذي ذَهَبَ مَنْ قَبْلَهُ إلى القول إنه للدلالة على الأهمية؛ فجاء عبد القاهر فَعَلَّلَ ووضَّح، وكذلك موقفه من (الاستعارة) و(الجناس) وسائر أنواع البديع التي كانوا يقولون بها للتزيين والتحسين؛ فرفض كل ذلك من خلال جديده في قضية النظم، وموقفه من (الصورة) و(السياق)؛ فقد أثبت أن جَمَالَ الصَّوْرَةِ غير راجع إليها، وإنما للسياق الذي وُجِدَتْ فيه، وكذلك عدم فصله بين اللفظ والمعنى في الأدب.

وتجاوز عبد القاهر في طريقة العرض؛ فَفَصَّلَ مَا أَجْمَلَ، مثل: (النظم) الذي جاء عند السابقين غير مُفَصَّل، و(البيان) الذي كان عند السابقين كاللمح والإيحاء والإشارة في خفاء.

لقد كانت قراءة عبد القاهر لسابقية للمحاورة والنقاش والغوص في بطون النصوص؛ مُعَلِّلاً مُحَلِّلاً مُسْتَحْسِنًا رَافِضًا وَمُنْتِجًا جديداً يتمثل في وضعه نظرية مُتكاملة، وتطبيقاً لهذه النظرية التي استحدث بها أساساً جديداً في نظرية الأدب وتقويمه. وكذلك في فهمه لأدبية الأدب وفنية الفن؛ إذ أرجع كل ذلك إلى طرائق التركيب والإحساس اللُّغَوِيّ، المُمَثَّل في النظم بخصوصه، إضافةً إلى منهجه في تحليل النصوص، والرجوع فيها إلى السياق، وما يحمله من طاقات إبداعية.

لقد غلبت على أفهام الناس قبل عبد القاهر أن مُهِمَّةَ النَحْوِ مقصورةٌ على صحة

التركيب وسلامتها من الخطأ، ومن ثَمَّ كان النحو أقرب إلى المنطق ؛ حيثُ حاول النُّحَاة أن يمزجوا بين النحو والمنطق ظناً منهم أن صِحَّةَ الكلام التي يبحث عنها النحو بمعناه الصوري، تقتضي صِحَّةَ الفكر التي يبحث عنها المنطق.

ورأى عبد القاهر أن النحو ليس مُتَعَلِّقًا بحركات الإعراب فقط، وليس مجموعة من القواعد الجافة، وإنما يُعَرَّفُ به صحيح الكلام من سقيمه ؛ فالنحو - عنده - ليس النحو الشكلي المنطقي، ولكنه النحو الذي يتغلغل في التراكيب، بوصفه مجموعة من العلاقات، لها أثرٌ كبيرٌ في أداء المعنى.

إنه يبحث عن الفروق في معاني النحو، والنحو - عنده - هو الطريق الصحيح للوصول إلى إعجاز القرآن ؛ فالمسألة عنده ليست هي المعرفة بقواعد النحو والصرف، وإنما الأمرُ أمر معرفة بمعاني العبارات، ووضعها مواضعها، وفائدة هذه العبارات إذا جاءت على هذا السياق أو ذاك، ومدى ما استطاعت أن تُحَقِّقَهُ من الدلالات ؛ إنه لا يقف عند مجرد الإعراب، ولكنه يتعدى ذلك إلى دلالة الإعراب على المعاني، والقاعدة النَّحْوِيَّة ليست هدفه، وإنما دلائلها على المعنى هي الهدف.

وقد تضمن البحثُ تمهيداً، وأربعة مباحث، واشتمل التمهيد على اختلاف القدماء في شأنِ النحو، ورصد المَبْحَثُ الأوَّلُ: مَوْقِفَ السَّيْرَانِيَّ وَعَبْدِ الْقَاهِرِ مِنَ النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ، وعرض المبحث الثاني: النحو الإبداعي، ودور عبد القاهر التجديدي في (الدلائل)، وعالج المَبْحَثُ الثَّالِثُ: تَجَاوُزَ عَبْدِ الْقَاهِرِ لِلْسَّابِقِينَ فِي رُؤْيِيهِ لِلنَّحْوِ، وتناول المَبْحَثُ الرَّابِعُ: نَظْرَةَ عَبْدِ الْقَاهِرِ التَّوْحِيدِيَّةَ لِلْعَةِ.

وقد اتَّبَعْتُ منهجاً تاريخياً تحليلياً مقارناً، يُورِّخُ للقضايا من خلال تفصيلاتها الجزئية والكلية، وأهم من تحدثوا فيها، ثم بعد ذلك يعرض ما قاله عبد القاهر.

التَّمْهِيدُ:

اِخْتِلَافُ الْقُدَمَاءِ فِي شَأْنِ النُّحُو:

ظَهَرَ النَّحْوُ الْعَرَبِيُّ مَخَافَةً مِنَ اللَّحْنِ، وَخَوْفًا عَلَى النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ مِنْ أَنْ يَسْتَشْرِيَ فِيهِ اللَّحْنُ الَّذِي هُوَ "أَفْبَحُ مِنَ الْجُدْرِيِّ فِي الْوَجْهِ، وَمِنْ التَّفْتِيحِ فِي الثَّوْبِ"^(١).

فالنحو وليد التفكير في قراءة القرآن الكريم، وقد كان "أوائل النُّحَاة مِنَ الْقُرَّاءِ أَوْ يَمُنُّ عَنَّا بِالدراسات القرآنية، ومنهم: عبد الله بن إسحاق الحضرمي، وعمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد"^(٢).

لقد نشأ النحو حول القرآن، وَوَصَلَ إِلَى ذُرُوتِهِ وَاكْتَمَالِهِ عَلَى يَدِ سَبْيَوِيهِ (ت ١٨٠ هـ) صاحب (قرآن النحو)، الَّذِي يُعَدُّ "أَوَّلَ وَضْعٍ شَامِلٍ لِقَوَاعِدِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، لَمْ تُغَيَّرْ الْأَجْيَالُ الْمُتَأَخِّرَةُ شَيْئًا مِنْ أُسُسِهِ وَقَوَاعِدِهِ، وَلَمْ يُضَفْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ اللاحقين شيئًا؛ حَتَّى قِيلَ: (النَّحْوُ عِلْمٌ نَضَجَ وَاحْتَرَقَ)، وَالنَّحْوُ عِنْدَ - الْقُدَمَاءِ - لَمْ يَكُنْ مَقْصُورًا عَلَى حَرَكَاتِ الْإِعْرَابِ، بَلْ كَانَ لَهُ دَوْرُهُ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْمَعْنَى وَالِدَّلَالَةِ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْبَصْرِيُّونَ وَالْكُوفِيُّونَ عَلَى دَوْرِ الْإِعْرَابِ فِي آدَاءِ الْمَعْنَى، وَإِنْ اِخْتَلَفَا فِي تَطْبِيقِهِ"^(٣).

فالنحو - عند أوائل النُّحَاة - مرتبط بأشد الارتباط بالدلالة لدرجة جعلت صالح الجَرَمِيِّ (ت ٢٢٥ هـ) يقول: "أَنَا مِثْلُ ثَلَاثِينَ سَنَةً أَفْتِي النَّاسَ فِي الْفَقْهِ مِنْ كِتَابِ سَبْيَوِيهِ"^(٤).

ويوجد مثل ذلك عند حمزة الكِسَائِيِّ (ت ١٨٩ هـ) الَّذِي نَظَرَ أَبَا يُونُسَ الْقَاضِي (ت ١٨٢ هـ) الْفَقْهَ بِالنَّحْوِ عِنْدَ هَارُونَ الرَّشِيدِ (ت ١٩٣ هـ)^(٥)؛ وَلِذَا كَانَ النَّحْوُ فِي الْكَلَامِ - عِنْدَهُمْ - بِمَنْزِلَةِ الْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ^(٦) يَفْسُدُ الْكَلَامُ إِذَا زَادَ أَوْ نَقُصَّ، كَمَا يَفْسُدُ الطَّعَامُ إِنْ زَادَ أَوْ نَقُصَّ الْمِلْحُ.

ارتبط النحوُ بالبلاغة، وقد حاول أحدُ الباحثين تَتَبُّعَ أثر النُّحَاةِ في الدرس البلاغي^(٧)، وتَبَّعَ آخر أثر سيبويه في البلاغيين^(٨)؛ فالنحو - عند أوائل النُّحَاة - هو المُحدَّد للدلالة، وقد تعمَّق عبد القاهر في ذلك بصفته نحويًّا، وفهم هذا الدور جيّدًا، يقول: "الكلام لا يستقيم ولا تحصل منفعه، التي هي الدلالات على المقاصد، إلا بمراعاة أحكام النحو من الإعراب، والترتيب الخاص، كما لا يُجْدي الطعام، ولا تَحْصُلُ المنفعة المطلوبة منه، وهي التغذية، ما لم يَصْلُحْ بِالْمِلْحِ"^(٩).

فأوائل النحاة كانوا أقدر الناس على الكلام، ومنهمم تُؤَخِّذُ العربية، وقد امتدحهم الجاحِظ (ت ٢٥٥هـ) بذلك، ثم اقتصر دور النُّحَاة بعد سيبويه على التعليق على كتاب بالمدح، والذم، والحواشي، والمُتُون، والتعليقات، التي جعلت من النحو شيئًا مكروهًا، وصعبًا، وكان جُهدُ النُّحَاة "عَقْلِيًّا مَنْطِقِيًّا مُوَلَّعًا بالتقسيم الشكلي، أكثر من تعلقه بالعلاقات المعنوية"^(١٠)، إنهم مُوَلَّعِينَ بالقياس؛ (فالنحو كله قياس)، كما يقول ابن الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، والأمر كما يقول الكسائي: (الرَّمَل)

إِنَّمَا النَّحْوُ قِيَاسٌ يُتَّبَعُ وَبِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ يُتَنَقَّعُ^(١١)

وهذا القياس ناقص، وعلى الرغم من ذلك النَّقْصُ فقد أقاموا عليه قواعد كُليَّة، وبه أهدروا كثيرًا من الاستعمالات التي نَطَقَ بها العرب، والواقع أن هناك فروقًا كبيرة بين اللغة كما حكيَتْ عن العرب، وكما قعدها النحويون؛ لَأَنَّ اللُّغَةَ نفسها لا تخضع - دائمًا - للقياس، ولا تسير - دائمًا - على قواعد؛ ولذلك كَثُرَتْ عُيُوبُ النحو المعيارى؛ لأنهم حَكَّمُوا استقراء ناقصًا لاستنباط قواعد كُليَّة تَحْكُمُ فِي اللُّغَةِ، وتظهر تلك العيوب في عجز النحو المعيارى وقصوره؛ بِمَّا سُمِّيَ بعد ذلك بالضرورة، وقد حاول النُّحَاة تأويل هذه الضرورة.

ومن عجز النحو المعياري أيضًا قول النُّحَاة: إن علامات الاسم: (الجر - التنوين - النداء - الإسناد)، ولا تنطبق هذه العلامات على الكلمات الآتية: (هَيْهَات - شَتَّان - سُرعان).

ومن هنا ظهرت عيوب في النحو المعياري ؛ ولذا تَقَلَّصَ دَوْر النُّحَاة بعد سيبويه، وجنحوا إلى التعقيد والتعقيد، "وأوغلوا في مسالك عقلية... ثم عقدوها، وأخرجوا هذه الدراسات من إطار الفَهْم اللُّغَوِيِّ، وتناولوها على أنها صناعة لفظية تقوم على البراعة في تصريف الألفاظ، واختراع القوالب ؛ حَتَّى أُصِيبَتْ بِالْجُمُودِ، واعتراها الجَدْبُ" (١٢).

"وانقلب النحو إلى صناعة لفظية تتباهى بالبراعة في تصريف الأفعال واختراع القوالب ؛ حَتَّى نَفَرَ مِنْهُمْ صَاحِبُ الذَّوْقِ السَّلِيمِ، ورمى كلامهم بأنه لغة لا تُفْهَمُ، وكأنها زَجْلُ الْغَرْبَانِ وَالْبُومِ" (١٣).

وتوجد مظاهر كثيرة تدل على نفور الناس من النُّحَاة؛ منها هذا الأعرابي الذي قال للأخفش الأوسط (ت ٢١٥هـ): "أَرَأَيْكُمْ تَتَكَلَّمُونَ بِكَلَامِنَا فِي كَلَامِنَا بِمَا لَيْسَ مِنْ كَلَامِنَا" (١٤)، والجاحظ يروي عن الأخفش تعقيده في كتبه سائلاً إياه: "لم لا تجعل كُتُبَكَ مفهومة كلها؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها؟ وما بالك تُقَدِّمُ بعض العويص؟ وتؤخِّرُ بعضَ المفهوم؟ قال: أنا رَجُلٌ لم أضع كُتُبِي هذه لله، وليست هذه من كُتُبِ الدين، ولو وضعتها هذا الموضع الذي تدعوني إليه، قلَّت حاجتهم إليَّ فيها، وإنما كانت غايتي المنآلة ؛ فأنا أضعُ بعضها هذا الموضع المفهوم ؛ لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس ما لم يفهموا" (١٥).

وكان أبو الحسن الرُّمَّانِي (ت ٣٨٤هـ) يَمَزِجُ كَلَامَهُ بِالْمَنْطِقِ مَزْجًا شَدِيدًا يَعْسُرُ

مَعَهُ الْفَهْمُ، وَيَشُقُّ عَلَى السَّامِعِ ؛ حَتَّى قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ (ت ٣٧٧هـ): "إِنْ كَانَ النُّحُو مَا يَقُولُهُ أَبُو الْحَسَنِ فَلَيْسَ مَعْنَاهُ شَيْءٌ، وَإِنْ كَانَ النُّحُو مَا نَقُولُهُ فَلَيْسَ مَعَهُ مِنْهُ شَيْءٌ" (١٦).

وَكَانَ أَهْلُ الْأَدَبِ يَمْنَحُونَ لِلرُّمَّانِيِّ لَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ شَيْئًا ؛ لِتَعْقِيدِهِ وَمَزْجِهِ النُّحُو بِالْفَلَسَفَةِ وَالْمَنْطِقِ، وَجُنُوحِهِ إِلَى طَرِيقَةٍ غَرِيبَةٍ عَلَى الْعَرَبِ فِي التَّعْلِيلِ بِعِلَلٍ قَدْ تَكُونُ صَحِيحَةً، وَقَدْ تَكُونُ غَيْرَ صَحِيحَةٍ، وَلِيْتَهُمْ فَعَلُوا مِثْلَهَا فَعَلِ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ (ت ١٧٠هـ) الَّذِي قَالَ بِعِلَلِهِ، وَمَنْ اعْتَلَّ بِهَا فَلَهُ ذَلِكَ، وَمَنْ رَأَى أَحْسَنَ مِنْهَا فَأَحْسَنَ وَزِيَادَةً، وَنَجَدَ الْمُبَرِّدَ (ت ٢٨٥هـ) يَقُولُ: "لَوْ صَلَّيْتُ خَلْفَ إِمَامٍ يَقْرَأُ ﴿مَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي﴾ [سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ، آيَةُ: ٢٢] وَ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ، آيَةُ: ١] لِأَخَذْتُ نَعْلِي وَمَضَيْتُ" (١٧)، وَالْمُبَرِّدُ يَقُولُ ذَلِكَ مِنْ كَثْرَةِ خِلَافِ النُّحَوِيِّينَ حَوْلَ الْآيَتَيْنِ.

كُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى جُمُودِ النُّحُو وَجَفَافِهِ، وَيَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ كُتُبَ الْمَنْطِقِ وَالْفَلَسَفَةِ الْيُونَانِيَّةِ قَدْ تُرْجِمَتْ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ، وَتَأَثَّرَ بِهَا النُّحَاةُ وَغَيْرُهُمْ كَأَيِّ أَثَرٍ وَافِدٍ أَنْبَهَرُوا بِهِ، وَحَافِلُوا أَنْ يُطَبِّقُوهُ عَلَى النُّحُو الْعَرَبِيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ فَصُبِّغَتِ الْمَسَائِلُ اللَّغَوِيَّةُ بِالصَّبْغَةِ الْمُنْطِقِيَّةِ أَوْ الْفَلَسَفِيَّةِ، وَتَتَمَثَّلُ هَذِهِ الصَّبْغَةُ الْمُنْطِقِيَّةُ فِي أَنَّ النُّحَاةَ سَلَكَوا مَسْلَكَ الْمَنَاطِقَةِ فِي وَضْعِ الْأُسُسِ وَالْقَوَاعِدِ لِللُّغَةِ عَلَى أُسَاسِ الْمَنْطِقِ مِمَّا جَعَلَهُمْ يَقُولُونَ: "يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمُنْطِقِيُّ نَحْوِيًّا وَالنُّحَوِيُّ مُنْطِقِيًّا" (١٨)؛ لِأَنَّ "الْبَحْثَ عَنِ الْمَنْطِقِ". قَدْ يَرْمِي بِكَ إِلَى جَانِبِ النُّحُو، وَالْبَحْثَ عَنِ النُّحُو يَرْمِي بِكَ إِلَى جَانِبِ الْمَنْطِقِ" (١٩).

لَمْ يَقْتَصِرِ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ بَلْ وَجَدَ مَنْ حَاوَلَ أَنْ يَقْرَنَ بَيْنَهُمَا وَهُوَ أَبُو سَعِيدٍ السَّيْرَافِيِّ (ت ٣٦٨هـ) فِي مُحَاوَرَتِهِ لِمَتَى الْمُنْطِقِيِّ ؛ حَيْثُ يَقُولُ: "وَالنُّحُو مَنْطِقٌ وَلَكِنَّهُ مَسْلُوكٌ

من العربية، والمنطق نحو، ولكنه مفهوم باللغة^(٢٠). ويقول أبو سليمان السجستاني (ت ٣٨٠هـ): "النحو منطق عربي، والمنطق نحو عقلي، وجُلُّ نظر المنطقي في المعاني، وإن كان لا يجوز له الإخلال بالألفاظ التي هي كالحُللِ والمعارض، وجُلُّ نظر النحوي في الألفاظ، وإن كان لا يَسُوغُ له الإخلال بالمعاني التي هي كالحقائق والجواهر"^(٢١).

هذه النصوص من القرن الرابع الهجري، ويتضح منها الفارق الكبير بين مفهوم النحو عندهم ومفهومه عند سيبويه، الذي كان يُفتي من كتابه في الفقه، أما النحو عندهم فأصبح صناعة لفظية منطقية، خلط فيها النُّحاة بين "خصوصية علم النحو العربي بوصفه ضابطاً لقوانين اللغة العربية، وعمومية المنطق، الذي لا يختلف باختلاف الزمان والمكان واللغة نفسها"^(٢٢)، ولا يهتم بالأشكال اللغوية (اهتمام النحو)، وإنما بما تشير إليه الأشكال اللغوية (المنطق).

لقد حاول النُّحاة قبل عبد القاهر أن يمزجوا بين النحو والمنطق ظناً منهم أن صحة الكلام التي يبحث عنها النحو بمعناه الصوري تقتضي صحة الفكر التي يبحث عنها المنطق، وهذا ما يرفضه الفكر القديم والحديث؛ لأن الجملة ربما تكون صحيحة نحويًا لكن معناها فاسد، مثل؛ (حَمَلْتُ الْجَبَلَ)، وغير ذلك ممَّا سَمَّاهُ سِبْوَيه مستقيماً محالاً.

ولسيطرة هذه النظرة المنطقية فقد أغرق النحاة في البحث عن العللِ الأوائل والثواني، وكان من نتيجة ذلك أن "تَوَغَّلَ النُّحاةُ في بحث أمور لم يكن النحوي في حاجة إليها، وابتعدوا عن الغرض الأصيل للنحو والهدف الأسمى للإعراب، وهو بيان ما يجب أن تكون عليه الجملة بمفردها، أو الجُمْل مع غيرها، حين تنقل الأغراض والمعاني من صُور المتكلمين إلى نُفوس السامعين"^(٢٣).

فالعرب - مثلاً - نطقت بالماضي مبنياً، ويكفي النحاة أن يقولوا فعل ماض مبني

على الفتح، ولكنهم لم يكفهم ذلك ؛ فَبَحْثُوا عن سبب البناء، ولم يُبْنَى على حركة؟
ولم كانت الحركة الفتح دون غيرها؟

كل ذلك لا أهمية له في النحو، وإنما من شأنه أن يُنْفَر من النحو ودراسته، وهذا ما حدث ؛ فقد زَهَدَ النَّاسُ - قبل عبد القاهر - في النحو، ومنْهُمْ النَّحَاة أنفسهم، مثل قُطْرُب (ت ٢٠٦ هـ) تلميذ سيبويه، الذي أراد أن يُسْقِطَ حَرَكَاتِ الْإِعْرَابِ (٢٤).

ونجد فريقاً آخر من النحاة يشك في جدوى النحو وأهميته، مثل ثعلب (ت ٢٩١ هـ)، وهو أحد النُّحَاة البارزين، وقد قال لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس: "يا أبا بكر اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا، واشتغل أهل الحديث بالحديث ففازوا، واشتغل أهل الفقه بالفقه ففازوا، واشتغلت أنا بزيد وعمر و فليت شعري ما يكون حالي في الآخرة؟" (٢٥).

وينقل عبد القاهر الجُرْجَانِيُّ عن الْخَوَارِزْمِيِّ (ت ٣٨٧ هـ) قوله: "البُغْضُ عِنْدَهُ كثرة الإعراب" (٢٦)، وتَعَدَّى الأمر ذلك إلى هجاء صريح، وتقليل من شأن اللغويين وعملهم، والمعري (ت ٤٤٩ هـ) - هو الآخر - يسخر من اللغويين وصنيعهم حين يجعل لهم وللأدباء مكاناً على باب الجنة يحاولون من خلال إجادتهم للغة دخول الجنة لِيُعَلِّمُوا أَهْلَهَا حَتَّى لَا يَلْحَنُوا، فيبتسم رضوان ويقول لهم: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾ [سورة يس، آية: ٥٥]، ويسخر المعري من اللغويين والنُّحَاة قائلًا: (الطويل)

أَرَى ابْنَ أَبِي إِسْحَاقَ أَشْحَقَهُ الرَّدَى وَأَذْرَكَ عُمَرَ الدَّهْرِ نَفْسَ أَبِي عَمْرِو
تَبَاهُوا بِأُمْرِ صَيْرُوهُ مَكَاسِبًا فَعَادَ عَلَيْهِمُ بِالْحَسِيسِ مِنَ الْأَمْرِ
بِكُسُوةٍ بُرْدٍ، أَوْ بِإِعْطَاءِ بُلْغَةٍ مِنْ الْعَيْشِ لَا جَمَّ الْعَطَاءِ وَلَا عَمْرِ (٢٧)

ولكثرة هذه التعقيدات في قواعد النحو، وهذا الخلاف المستمر بين النحاة المتمسكين بالقواعد والمغالين فيها، ومُتَكَلِّمِي اللُّغَةِ الذين زهدوا في النحو، وهجوا أهله؛ فقد ارتفعت الأصوات بمحاولة تيسير النحو من نهاية القرن الثاني الهجري، "وظهرت كُتُبٌ لاختصار القواعد النَّحْوِيَّةِ وتقديمها في صورة سهلة مُيسِّرة، من هذه الكُتُب: (مُقَدِّمَةٌ في النحو)، والكتاب منسوب إلى خَلْفِ الْأَحْمَر (ت ١٨٠هـ)، و(مُخْتَصَرٌ فِي النَّحْوِ) لِلْكَسَائِيِّ، ومُخْتَصَرٌ آخَرٌ لِلْجَرْمِيِّ، وثالث لأبي مُوسَى الْحَامِضِ (ت ٣٠٥هـ)، ورابع لِلزَّجَّاجِ (ت ٣١١هـ)، ثُمَّ كِتَابُ (الْجُمْلِ) لِلزَّجَّاجِيِّ (ت ٣٣٧هـ)، كما أَلَفَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارَسِيُّ (الإيضاح في النحو والتكملة في الصرف)، وشارك ابن جَنِّي (ت ٣٩٢هـ) في هذا النوع من الكُتُب بكتاب (اللُّمَع)" (٢٨).

ولا بد من أن نستدل بعبارة من كُتُب تلخيص النحو؛ لِنُبَيِّنَ من خلالها الدافع الذي دفعهم إلى هذا النوع من المؤلفات، يقول خلف الأحمر: "لَمَّا رَأَيْتُ النَّحْوِيْنَ وَأَصْحَابَ الْعَرَبِيَّةِ أَجْمَعِينَ قَدْ اسْتَعْمَلُوا التَّطْوِيلَ، وَأَغْفَلُوا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُتَعَلِّمُ الْمُتَبَلِّغُ فِي النَّحْوِ مِنَ الْمَخْتَصَرِ فِي الطَّرُقِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْمَأْخُذِ الَّذِي يَخْفُ عَلَى الْمُتَبَدِّئِ حِفْظُهُ، وَيُعْمَلُ فِيهِ عَقْلُهُ، وَيُحِيطُ بِهِ فَهْمُهُ؛ فَأَمْعَنْتُ النَّظَرَ وَالْفِكَرَ فِي كِتَابٍ أَوَّلَفُهُ، وَأَجْمَعُ فِيهِ الْأُصُولَ وَالْأَدَوَاتِ وَالْعَوَامِلَ عَلَى أُصُولِ الْمُتَبَدِّئِينَ؛ لِيَسْتَغْنِيَ بِهِ الْمُتَكَلِّمُ عَنِ التَّطْوِيلِ؛ فَعَمِلْتُ هَذِهِ الْأَوْرَاقَ، وَلَمْ أَدْعُ فِيهَا أَصْلًا، وَلَا أَدَاءً، وَلَا حُجَّةً، وَلَا دَلَالَةً إِلَّا أَمْلَيْتُهَا فِيهَا؛ فَمَنْ قَرَأَهَا وَحَفِظَهَا وَنَظَرَ عَلَيْهَا عَلِمَ أُصُولَ النَّحْوِ كُلَّهُ؛ بِمَا يُصْلِحُ لِسَانَهُ فِي كِتَابٍ يَكْتُبُهُ، وَشِعْرٍ يَنْشُرُهُ، أَوْ خُطْبَةٍ أَوْ رِسَالَةٍ إِنَّ أَلْفَهَا" (٢٩).

وعندما أعيدَ قراءة قول خلف الأحمر السابق: (كِتَابٍ أَوَّلَفُهُ، وَأَجْمَعُ فِيهِ الْأُصُولَ وَالْأَدَوَاتِ وَالْعَوَامِلَ عَلَى أُصُولِ الْمُتَبَدِّئِينَ؛ لِيَسْتَغْنِيَ بِهِ الْمُتَكَلِّمُ عَنِ التَّطْوِيلِ)، ما يلبث أن يرد إلى ذهني نص عبد القاهر في (الدلائل)، الذي يقول فيه: "لو أَنَّ

هؤلاء القوم إذ تركوا هذا الشأن تركوه جُمْلَةً، وإذ زعموا أن قدر المفتقر إليه القليل منه، اقتصروا على ذلك القليل ؛ فلم يأخذوا أنفسهم بالفتوى فيه، والتصرف فيها لم يتعلموا منه، ولم يخوضوا في التفسير، ولم يتعاطوا التأويل، لكان البلاء واحداً، ولكانوا إذ لم يبنوا لم يهدموا، وإذ لم يصلحوا لم يكونوا سبباً للفساد^(٣٠).

كل هذه التيسيرات محاولة لإصلاح النحو، ونزع ما علق به من شوائب نمت إلى علوم أخرى نشأت في ثقافات أخرى بعيدة - كل البعد - من العربية، وهذه المحاولات ظهرت قبل ابن جني، الذي يمثل مرحلة عظيمة وصل إليها الفكر اللغوي.

المبحث الأول: موقف السيرافي وعبد القاهر من النحو العربي:

من اللازم أولاً أن أعرض ما قاله السيرافي في مناظرته الشهيرة مع متى ؛ لأن هناك من أكد أثر هذه المناظرة في نظرية (النظم) عند عبد القاهر، وأزعم من خلال القراءة المتعمقة لنص الرسالة ونظم عبد القاهر أن الاتفاق بينهما اتفاقاً في الظاهر فقط، والغاية مختلفة، وإن اقترب نص عبد القاهر من السيرافي اقتراباً شديداً ؛ فالسيرافي - كعبد القاهر - يرى أن النحو ليس متعلقاً بحركات الإعراب فقط، وإنما يُعرف به صحيح الكلام من سقيمه، وهذا يتفق مع قول متى عن النحو: "إنه آلة من آلات الكلام يُعرف بها صحيح الكلام من سقيمه، وفساد المعنى من صالحه، كالميزان"^(٣١).

والنحو عند السيرافي ليس النحو الشكلي، الذي غايته معرفة أواخر الكلمات وحركات الإعراب، ولكنه النحو الذي يبحث عن صحة المعاني من فسادها، أو فلنقل: يبحث في صميم صحة التركيب الدال على المعنى ؛ ولذا فقد جعل النحو ضرباً من المنطق فالنحو - كما يقول - منطق مسلوخ من العربية^(٣٢)، ويقول أيضاً، مُقْتَرَباً من مفهوم النحو عند عبد القاهر: "معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ

وسكناته، ووضع الحروف في مواضعها الْمُقْتَضِيَّةَ لها، وتأليف الكلام بالتقديم والتأخير، وتَوْخِي الصواب في ذلك، وتَجَنَّب الخطأ" (٣٣).

ونجد عبد القاهر يذهب في (الدلائل) إلى ما هو قريب من ذلك ؛ فقول السَّيرَافِي: (معاني النحو) قريب من قول عبد القاهر: "ليس (النظم) إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه (علم النحو)، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجها التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تُخِلَّ بشيء منها" (٣٤)، وقوله أيضًا: "ليس (النظم) شيئاً إلا توخى معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم" (٣٥).

أما قول السَّيرَافِي: (وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها) ؛ فهو يقصد بالحروف الألفاظ، وهذا ما أراده عبد القاهر بقوله: "ليس الغرض بنظم الكلم، أن توالى ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها، على الوجه الذي اقتضاه العقل" (٣٦).

يقول السَّيرَافِي: (المُقْتَضِيَّة)، ويقول عبد القاهر: (اقتضاه) ؛ فهناك اتفاق بينهما في أن النحو ليس النحو الشكلي المنطقي، ولكنه النحو الذي يتغلغل في التراكيب، إلا أن لكل منهما غرضه منه ؛ فالنحو عند السَّيرَافِي منطق مسلخ من العربية، غايته توخي الصواب، وتجنب الخطأ، ولا يوجد في حديث السَّيرَافِي عن النحو هذا الاتحاد الشديد الذي نراه عند عبد القاهر في قوله: "اعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك، في توخي المعاني التي عرفت: أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشدد ارتباط ثانٍ منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحداً، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك" (٣٧).

أما غاية النحو عند عبد القاهر فليس معرفة الصواب من الخطأ - كما هي عند السَّيرَافِيِّ - ؛ فقد غلبت على أفهام الناس قبل عبد القاهر أن مِهْمَةَ النحو مقصورةٌ على صحة التراكيب وسلامتها من الخطأ، ومن ثَمَّ كان النحو أقرب إلى المنطق^(٣٨).

النحو عند السَّيرَافِيِّ منطق يُعرف به صحة التراكيب؛ ومن هنا فما رآه السَّيرَافِيُّ لا يصل إلى مفهوم النحو الجرجاني، ولا يصل إلى فهم عبد القاهر للنظم الشاخص فيه إلى مطارح الجمال في التعبير.

وفضلاً عن ذلك فقد أدخل السَّيرَافِيُّ المنطق في النحو، وجعل النحو شاخصاً إلى المعنى ؛ وذلك لأنه لُغَوِيٌّ فَقِيهٌ نَحْوِيٌّ مُتَكَلِّمٌ، عالمٌ بالمنطق، بارِعٌ في الجدل وفن المناظرة إلى درجة المغالطة أحياناً^(٣٩).

فالتفريق بين قوله: (زيدٌ أفضل إخوته)، و(زيد أفضل الإخوة) ليس من النحو، ولكن من المنطق، يقول: "إذا قلت: (زيد أفضل إخوته) لم يجوز، وإذا قلت: (زيد أفضل الإخوة) جاز، والفصل بينهما أن إخوة زيد هم غير زيد، وزيد خارج عن جملتهم، والدليل على ذلك أنه لو سأل سائل فقال: (مَنْ إخوة زيد؟) لم يجوز أن تقول: زيد وعمرو وبكر وخالد، وإنما تقول: بكر وعمرو وخالد، ولا يدخل زيد في جملتهم؛ فإذا كان زيد خارجاً عن إخوته صار غيرهم؛ فلم يجوز أن تقول: (أفضل إخوته)، كما لم يجوز أن تقول: (إن حمارك أفره البغال)؛ لأن الحمير غير البغال، كما أن زيدا غير إخوته؛ فإذا قلت: (زيد خير الإخوة) جاز؛ لأنَّه أحد الإخوة، والاسم يقع عليه وعلى غيره، فهو بعض الإخوة، ألا ترى أنه لو قيل: (مَنْ الإخوة؟) عددته فيهم"^(٤٠).

والتركيبان صحيحان من ناحية النحو الشكلي، ولكن السَّيرَافِيُّ حَكَّمَ فيهما المنطق والبراهين؛ فَحَكَّمَ بِأَنَّ أحدهما خطأ.

وإن كان النحو عند السَّيرافي كذلك فقد تجاوز سيبويه عندما قال: "من الكلام مستقيم كذب" ^(٤١)، أي مستقيم من ناحية النحو، مُحال من ناحية المعنى، كقولك: "حَمَلْتُ الْجَبَلَ"، و(شَرَبْتُ مَاءَ الْبَحْرِ) ^(٤٢).

نجد عند السَّيرافي مقدمات ونتائج وبراهين ليست من النحو في شيء، ولا يستطيعها إلا رجلٌ على عِلْمٍ بالمنطق ^(٤٣).

يبحثُ السَّيرافي عن الصواب والخطأ في الكلام، أما النظم (معاني النحو) فمَنْظور فيه إلى الجمال والاتحاد والارتباط، وعبد القاهر باحث في إعجاز القرآن.

يتكلم السَّيرافي عن ضابط اللغة في مستواها العادي، والأمثلة التي ضربها تدل على ذلك؛ فهو يتكلم عن لغة الأخذ والعطاء / اللغة النمطية، لغة النشاط البشري التي وظيفتها حفظ الحياة، وضابطها منطق مسلوخ منها؛ فهي قواعد وقوانين لا يمكن الخروج عليها، وهذه القوانين منطقية، وكان من شأن ذلك جمود هذه القواعد قبل عبد القاهر؛ ممَّا نفَّر كثيرين من النحو ودارسيه.

وعندما جاء عبد القاهر لم تعد قواعد النحو لديه جافة مقصورة على الإعراب - كعهدها بها - وإنما "أضحت من وسائل التصوير والصياغة، ومقياساً يُهْتَدَى به في البراعة، ويتفاوت في التسابق فيه الشعراء" ^(٤٤).

ولذلك يرى عبد القاهر أن النحو مجموعة من العلاقات، وليس مجموعة من القواعد الجافة، والنحو عنده له كبير أثر في أداء المعنى، يقول: "أما زهدهم في النحو واحتقارهم له، وإصغارهم أمره، وتهاونهم به، فصنيعهم في ذلك... أشبه بأن يكونَ صَدًّا عن كتاب الله، وعن معرفة معانيه؛ ذاك لأنهم لا يجدون بُدًّا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه" ^(٤٥).

فالنحو عند الرجل هو طريق معرفة معاني القرآن الكريم ؛ لأن اللفظة مغلقة حتى يأتيها الإعراب فيفُصُّ معناها، ولا يوجد معنى للفظه قبل استعمالها ودخولها في علاقات، بأن يسبقها لفظ ويتبعها آخر على نحو بخصوصه كما يقول، ومثل هذه العلاقات هي التي تنفي عن الاسم الجهالة ؛ فالاسم يظل مجهول الموقع من الجملة حتى ترفعه أو تنصبه ؛ فتنتفي الجهالة ويظهر الإعراب، والأمر كما يقول: "الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه، لا يُنكرُ ذلك إلا من يُنكر حسه، وإلا من غلط في الحقائق نفسه" (٤٦).

إن الخروج على النحو فسادٌ للكلام وخلل واضطراب، والإعراب يُظهر مكانة الاسم ووظيفته إن كان فاعلاً أو مفعولاً أو غير ذلك، وفرق كبير بين قولنا: (هذا قاتل أخي)، و(هذا قاتل أخي)، والذي أبان هو التنوين وحركات الإعراب.

ولهذا الشأن وتلك الأهمية للنحو فقد بدأ عبد القاهر بتفنيد حُجَج مَنْ زَهدَ في النحو، وهو لا يريد بالنحو والصرف هذه الرياضة العقلية التي يصنعها النحويون للرياضة، ولضرب من تمكين المقاييس في النفوس، يقول: "قُلْنَا هُمْ: أمّا هذا الجنس ؛ فلسنا نعيبكم إن لم تنظروا فيه ولم تُعنوا به، وليس يهْمنا أمره ؛ فقولوا فيه ما شئتم، وضَعُوهُ حيثُ أَرَدْتُمْ ؛ فإن تَرَكُوا ذلك وتجاوزوه إلى الكلام على أغراض واضع اللغة، على وجه الحكمة في الأوضاع، وتقرير المقاييس التي اطرَدَتْ عليها، وذَكَرَ العِلل التي اقتصت أن تجري على ما أُجريت عليه، كالقول في المعتل، وفيما يلحق بالحروف الثلاثة التي هي الواو والياء والألف من التغير بالإبدال والحذف والإسكان. . . قُلْنَا: إِنَّا نَسَكْتُ عَنْكُمْ فِي هَذَا الضَّرْبِ أَيْضًا، وَنَعُذِرْكُمْ فِيهِ وَنُسَامِحْكُمْ، عَلَى عِلْمِ مَنْنَا بِأَن قَدْ أَسَاءْتُمْ الْاِخْتِيَارَ" (٤٧).

فليس هذا هو النحو الذي يريده عبد القاهر، وإنما هو يبحث عن الفروق في معاني النحو، يقول: "هل رأيتم إذا قد عرفت صورة المبتدأ والخبر، وأن إعرابهما الرفع، أن تجاوزوا ذلك إلى أن تنظروا في أقسام خبره؛ فتعلموا أنه يكون مفردًا وجملةً، وأن المفرد ينقسم إلى ما يحتمل ضميرًا له، وإلى ما لا يحتمل الضمير، وأن الجملة على أربعة أضرب... إلى سائر ما يتصل بباب الابتداء من المسائل اللطيفة والفوائد الجليلة التي لا بد منها" (٤٨).

وإذا نظرت في الصفة مثلاً؛ "فعرّفتُم أنها تتبع الموصوف، وأن مثالها قولك: (جاءني رجلٌ ظريفٌ) و(مررتُ بزيدٍ الظريفِ)، هل ظننتُم أن وراء ذلك علمًا، وأن ههنا صفةً مُحصَّص، وصفةً توضح وتبين، وأن فائدة التخصيص غير فائدة التوضيح، كما أن فائدة الشّيع غير فائدة... وهكذا ينبغي أن تُعرض عليهم الأبواب كلها واحدًا واحدًا، ويُسألوا عنها بابًا بابًا، ثم يُقال لهم: ليس إلاّ أحد أمرين: إمّا أن تقتحموا التي لا يرضاها العاقل؛ فتُكروا أن يكون بكم حاجة في كتاب الله تعالى، وفي خبر رسول الله ﷺ، وفي معرفة الكلام جملةً، إلى شيء من ذلك... وإمّا أن تعلموا أنكم قد أخطأتم حين أصغرتُم أمر هذا العلم، وظننتُم ما ظننتُم فيه؛ فترجعوا إلى الحق" (٤٩).

ويرد عبد القاهر على الذين يقللون من قيمة النحو، ويזהدون فيه؛ لأنه الطريق الصحيح للوصول إلى إعجاز القرآن، وهو لا يريد النحو المنطقي ولا تشعباته، ولا النحو الشكلي، وإنما يريد النحو الذي يبحث عن فروق المعاني؛ فالمسألة - عنده - ليست هي المعرفة بقواعد النحو والصرف، وإنما الأمر أمر معرفة بمعاني العبارات، ووضعها مواضعها، وفائدة هذه العبارات إذا جاءت على هذا السياق أو ذاك، ومدى ما استطاعت أن تُحقِّق من الدلالات" (٥٠).

وهو كذلك لا يبحث عن قواعد النحو وأسماء حرركاته، يقول: "تَزْعَمُوا أَنْكُمْ إِذَا عَرَفْتُمْ مَثَلًا أَنَّ الْفَاعِلَ رَفَعٌ، لَمْ يَبْقَ عَلَيْكُمْ فِي بَابِ الْفَاعِلِ شَيْءٌ تَحْتَاجُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ، وَإِذَا نَظَرْتُمْ إِلَى قَوْلِنَا: (زَيْدٌ مُنْطَلِقٌ)، لَمْ تَحْتَاجُوا مِنْ بَعْدِهِ إِلَى شَيْءٍ تَعْلَمُونَهُ فِي الْإِبْتِدَاءِ وَالْخَبَرِ، وَحَتَّى تَزْعَمُوا مَثَلًا أَنْكُمْ لَا تَحْتَاجُونَ فِي أَنْ تَعْرِفُوا وَجْهَ الرَّفْعِ فِي ﴿الصَّابِئُونَ﴾ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ [سُورَةِ الْمَائِدَةِ: آيَةُ ١٩] إِلَى مَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ فِيهِ" (٥١).

لا يقف عبد القاهر عند مجرد الإعراب، ولكنه يتعدى ذلك إلى دلالة الإعراب على المعاني؛ فقولك: (زيد) مبتدأ، و(منطلق) خبر، هذا هو جُهدُ النُّحاة، وهو لا يقف عند ذلك، بل يتعداه إلى فروق المعاني، "التي تنتج من الاختلاف، الذي يقود هذا التركيب تقديمًا وتأخيرًا، تعريفًا وتنكيرًا، وما يكون بين هذه المعاني من فروق، والقاعدة النحويَّة ليست هدف عبد القاهر، وإنما دلالاتها على المعنى هي الهدف" (٥٢).

ومن هنا اختلف مفهوم عبد القاهر للنحو عن سابقيه، وأصبح أوسع من المعنى التقليدي؛ وذلك لأنه باحث عن فروق بين أشكال ثابتة في الدلالة على المعنى، وتعلُّقُ الكلامِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ.

المَبْحَثُ الثَّانِي: النَّحْوُ الْإِبْدَاعِيُّ، وَدَوْرُ عَبْدِ الْقَاهِرِ التَّجْدِيدِيِّ فِي (الدَّلَائِلُ):

لقد نفى عبد القاهر عن (دلائله) مفهوم النحو الشاخص إلى الصواب والخطأ، وأصبح النحو عنده شاخصًا إلى الصحة وجمال التعبير، والأمر كما يقول في (الأسرار): "لا يستقيم الكلام، ولا تحصيلُ منافعِهِ، التي هي الدلالات على المقاصد، إلا بمراعاة أحكام النحو فيه، من الإعراب والترتيب الخاص" (٥٣).

وتعني كلمة (مَنَافِعُهُ) - فيقول عبد القاهر: (تَحْصُلُ مَنَافِعُهُ) - جميع وظائف اللغة من إخبار، وتأثير، وتوصيل، ومنفعة، وغير ذلك، النحو بذلك كالمَلَحْ به يَصْلُحُ الكلامُ وَيَفْسُدُ.

ولكن ما الفرق بين نحو لغة الإخبار كما هو عند السابقين، والنحو الإبداعي أو نحو لغة الأدب؟ تعتمد لغة الإخبار على ألفاظ، طريق معرفة معناها هو النقل المحض، والنحو هو القواعد التي وضعها النحويون، والتي لا يجب الخروج عليها إلا بسبب أو ضرورة.

ويأتي الشعراء - أمراء الكلام - فيخرجون على هذه القواعد؛ لأنهم لا يقصدون بقصيدهم الإخبار أو التواصل فيتبعون تلك القواعد الجامدة، وإنما يبتغون التأثير، ولا يكون هذا التأثير إلا بانتهاكات مُنظمة لتلك الأشكال المنطقية للقواعد؛ وذلك لأن "الكتابة الفنية تتطلب من الكاتب أن يُفاجئ قارئه من حين إلى حين بعبارة تُثير انتباهه. . . ولا يتحقق ذلك للغة الأدب إلا بما فيها من المفاجآت والخروج على سياق الكلام العادي، أي بفضل ما فيها من الانحراف" (٥٤).

لغة الأدب - إذن - لغة منحرفة عن المستوى العادي، ولاحقة عليه، وهي "ابتعاد من اللغة المُسمَّاة بالنَّمطِيَّة (standard) أو الشائعة، وهذا الابتعاد أو الانحراف يكون كذلك بالنسبة إلى القواعد التي تتحكم في الاستخدام اليومي والتوصيلي للغة، وهو يعني وجود أبنية، وأشكال، وأدوات، ووسائل تُحوِّل اللغة الأدبية إلى نوع من اللغة خاص، ومختلف، يتجاوز الإمكانيات الوصفية لعلم القواعد" (٥٥).

ولا أريد بخروج الأديب على قواعد اللغة العادية الخروج إلى الخطأ، ولكن أقصِدُ الخروج على المعتاد المألوف؛ فإن كان المبتدأ للابتداء في اللغة العادية؛ فلا غرض في نفس الرجل يُؤخِّرُ المبتدأ مُقدِّمًا الخبر، مثل المُتنبِّي (ت ٣٥٤هـ) حين يقول: (الطويل)

عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدَرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ (٥٦)

فالشاعر هنا لم يخرج إلى الخطأ، ولكنه خرج عن المعتاد؛ حيث "تُمارَسُ الأشكالُ النحويَّةُ المنطقيَّةُ (Logical Grammatical) تأثيرها في القصيدة، ولكنها تتراجع إلى الخلف لمصلحة اللحظات البنائية للإبداع"^(٥٧)، ومن هنا فالأديب القادر على الكلام يقود اللغة ويوجهها من خلال استخدام خاص لها، ويتعامل مع القواعد التي وضعها النحاة ليس في شكلها المنطقي، ولكن في شكلها الإبداعي.

ويكون النحو - بذلك - "مَشْغَلَةً الفنانين والشعراء، والشعراء أو الفنانون هم الذين يفهمون النحو. . . فالنحو إبداع. . . وجزء أساسي في ذكاء الشاعر وفطنته وروعته. . . النحو جزء أساسي يَمَّا تُسَمِّيهِ نشاط الكلمات في الشعر"^(٥٨).

واللغة عند اللغويين والنحاة والأدباء والبلاغيين والنقاد أشبه باللعبة، واللغة لها قوانين، والنحوي أو رجل اللغة وغيرهم من المهتمين بالطابع المادي التواضعي للغة (النقل المحض) يهتمون أكثر ما يهتمون بقواعد اللعبة؛ فهم يتربصون الدوائر باللاعبين (مُسْتَخْدِمِي اللُّغَةِ)؛ فمنهم من يسير على نهجهم (المخبر)، ومنهم العبقرى الشاعر أمير الكلام الذي عنده سُرْعَةُ البديهة والإمارة والقيادة؛ لذا يَشْدُو ويُخْرُجُ عن قوانين اللعبة، ليس إلى الخطأ، ولكن إلى التفرد في وضع قوانين لنفسه متولدة من قوانينهم، قوانين فرضتها عليه حالته وعبقريته.

إن الشاعر يتفرد في استعمال ذلك المرسوم له؛ فينهره اللغويون (المُقَنَّوْنَ للعبة) تارة، ويتعقبونه بالتصحيح (الحضرمي والفردق مثلاً) أحياناً، ويُعْجَبُونَ بمهارته في ذلك الشذوذ/ الخروج/ المجاز غير الملحوظ أو الغش اللغوي - إن جاز التعبير - الذي يقوم به اللاعب الماكر، وما هذا اللاعب الماكر إلا فنان اللغة / أديبها / أميرها / يلعب بطريقته يشذ / يخرج / ينحرف / أحياناً، ويخادع أحياناً، ويُدْعِ في كل حين؛ ولذا فالمُعْجَبُونَ

يحاولون الصفح عنه، وتأويل أخطائه لصالحه (المتنبى، وابن جنبي)، (الصولي، أبو تمام)، وهناك من يتوسط الفريقين كالقاضي الجرجاني (ت ٣٩٢هـ) في (الوساطة).

وهذا ما يذهب إليه فتنجشتين في العصر الحديث، يقول: "لو أننا حاولنا أن نُشَبِّهَ فَهْمَ الإنسان للاستعمالات المختلفة للألفاظ بفهمه للقواعد التي لا بُدَّ من مراعاتها في كلِّ لعبة من الألعاب (Games)؛ فاللغة هي أشبه ما تكون باللعبة؛ من حيث إنه لا بد من التزام بعض القواعد في كلِّ منهما، وكما أن الاختلاط لا بُدَّ من أن يشيع بين اللاعبين، لو سمح كلُّ لاعب لنفسه بأن يتبدع قواعد جديدة للعبة في أثناء استمراره في اللعب، أو لو أساء كلُّ لاعب تطبيق أصول اللعبة، أو لو عمد كلُّ اللاعبين أو بعضهم إلى تصور اللعبة بطريقة سكونية جامدة؛ فكذلك لا بد من أن يحدث ضرب من الاختلاط أو الفوضى أو الحيرة لو عمَدَ الناطقُ باللغة إلى ابتداع قواعد لغويَّة جديدة، أو خالف بعض القواعد المعلنة، أو لو أساء تصور (أو فهم) اللغة نفسها" (٥٩).

لكن لغة الشاعر لغة انفعاليَّة غير هذه اللغة الإخبارية، وكما يقول ثندريس: "فإن اللغة الانفعاليَّة (الأدبيَّة) تَنفُذُ في اللغة النحويَّة، وتسطو عليها، وتفككها" (٦٠).

وليس معنى ما أقول القطيعة بين اللغتين، ولكن بينهما تأثير متبادل عن طريق وجود قواعد الأولى في الثانية بطريقة خاصة منها التقديم والتأخير؛ فالمبتدأ والخبر كلاهما موجود في اللغتين - الإخبارية والأدبية - ولكنهما في الأدبية أخذ كلُّ منهما مكانة لسبب في نفس المتكلم، وقد يتقدم الخبر ويتأخر المبتدأ فيصبح في مكان غير المكان، ومقام غير المقام؛ لغرض في نفس الأديب ما كان ليظهر إلا بهذا التقديم والتأخير، وكذلك الحذف والذكر، والفصل والوصل، والقصر، وغير ذلك مما هو معروف بمباحث (علم المعاني)، وهذا هو مفهوم النحو الإبداعي عند عبد القاهر

؛ ولذا فقد وجدناه يتجاوز كثيراً عما جاء عند النحاة إما باعتراض عليهم، وإما بالتوجيه والإضافة ؛ وذلك لأن النحو - عنده - لم يقتصر على هذا النحو الشكلي الذي وُجِدَ عند النحاة، واللغة - عنده - لم تُعَدْ تلك العناصر المنفصلة إلى لفظ ومعنى وصورة وسياق، بل كانت لغة تتسم بالتوحد أو الاتحاد، لغة تُمثِّل النمط العالي والكلام الشريف الذي لا يصل إلى رُتَبَتِهِ كلام.

عبد القاهر إذن لم يكن كسابقه يتعامل مع النحو بوصفه قواعد تبحث عن صحيح الكلام وفاسده، بل كان عنده هو طريق الوصول إلى دليل إعجاز القرآن، وكان يتعامل مع النحو بوصفه وسيلة من وسائل استغلال الطاقة في اللغة، ومحاولة استخلاص الإمكانيات المتاحة من هذه الطاقة^(٦١).

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: تَجَاوُزُ عَبْدِ الْقَاهِرِ السَّابِقِينَ فِي رُؤْيِيهِ لِلنَّحْوِ:

وهذا الفهم للنحو بإمكاناته جعل عبد القاهر يتجاوز سابقه، ويعترض عليهم ؛ لِفَهْمِهِمُ الْقَاصِرَ لِهَذَا النِّبْعِ الَّذِي لَا يَنْضُبُ، وَتَمَثَّلَ تَجَاوُزُهُ لَهُمْ فِي ثَوْرَتِهِ عَلَى اللُّغَوِيِّينَ الْعَرَبِ ؛ لِأَنَّهُمْ "لم يستفيدوا من مبدأ جيد وضعه سيبويه مُؤَدَّاهُ رِبْطُ الْكَلَامِ بِمَقْتَضَى الْحَالِ"^(٦٢).

لقد انشغل النحويون قبل عبد القاهر بالبحث عن صحة الكلام، ولم يتغلغلوا في معرفة دقائق الكلام، وما الفرق بين صحيح وصحيح، وما أثر التقديم والتأخير وبلاغته، والحذف، والذكر، والإظهار، والإضمار، وغير ذلك من أبواب علم المعاني، وقد عاب عليهم بعض الأمور، من ذلك: موقفه منهم في التقديم والتأخير ؛ حيث يعترض عليهم قائلاً: "واعلم أننا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل، غير العناية والاهتمام"^(٦٣).

وقوله: (يجري مجرى الأصل): أن يجعل المبتدأ في مكان الخبر، ويحذف ما يقتضيه الذكر، ويذكر ما يقتضيه الحذف؛ لسبب بلاغي، ويُعرَّف ما يستحق التذكير، ويُذكر ما يستحق التعريف؛ فذلك معنى قوله: (يجري مجرى الأصل)، أي شيء طارئ ليس في مكانه، جاء مكان الأصل لسبب بلاغي، وعبد القاهر يؤكد أن النحويين في مثل ذلك (التقديم والتأخير) لا يفسرونه إلا بقولهم العناية والاهتمام، ولم يُحدِّد عبد القاهر هؤلاء الذين يقولون بذلك، واكتفى بالإشارة إلى كبيرهم الذي علمهم النحو وهو سيبويه؛ فإن كان كبيرهم يقول: (إن التقديم والتأخير لمجرد العناية والاهتمام)؛ فما بالنا بالآخرين؟ يقول عبد القاهر: "قال صاحب الكتاب، وهو يذكُر الفاعل والمفعول: (كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بيانه أَعْنَى، وإن كانا جميعاً يهملانهم ويعنيانهم)" (٦٤).

ويضرب عبد القاهر مثلاً بقول النحويين: (قتل الخارجي زيد) (٦٥)، ويُعقَّب قائلاً: "وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال: (إنه قدَّم للعناية؛ ولأن ذكره أهم)، من غير أن يُذكر من أين كانت تلك العناية؟ وبم كان أهم؟ ولتخيّلهم ذلك، قد صَغُر أمر (التقديم والتأخير) في نفوسهم، وهَوَّنُوا الحُطْبَ فيه... وكذلك صنعوا في سائر الأبواب؛ فجعلوا لا ينظرون في (الحذف والتكرار) و(الإظهار والإضمار)، و(الفصل والوصل)، ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه إلا نظَّرك فيما غيره أهم لك، بل فيما إن لم تعلمه لم يُضْرَك" (٦٦).

وعدم الاهتمام بتلك الفروق عند عبد القاهر من شأنه أن يُبعد من معرفة البلاغة، "لا جرم أن ذلك قد ذهب بهم عن معرفة البلاغة، ومنعهم أن يعرفوا مقاديرها" (٦٧).
عبد القاهر في التقديم والتأخير لا يقول بمجرد العناية والاهتمام كما يقول

النحويون، ولو قال ذلك فما الفرق بين تقديم وتقديم، وقولنا: نَظُمٌ أَشْرَفُ مِنْ نَظْمٍ؟ وَبِمَ عَظُمَ التَّفَاوُتُ وَاشْتَدَّ التَّبَايُنُ، وَتَرَقَّى الْأَمْرُ إِلَى الْإِعْجَازِ؟ ولذا فقد بدأ عبد القاهر في تحليل جمال (التقديم والتأخير)؛ فوجد أن للتقديم والتأخير معنى في حد ذاته يضاف إلى الملفوظ من الكلام بلا لفظ، وهذا ما يجتهد الألسنيون المحدثون اليوم في استنباطه والتقنين له وخاصة علماء الدلالة ((Semantics))^(٦٨).

ويقسم عبد القاهر (التقديم والتأخير) إلى وجهين: "الوجه الأول: تقديم على نية التأخير، والثاني: تقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعل له بابا غير بابهِ. . . حيث تقول مرة: (زيد المنطلق)، وأخرى: (المنطلق زيد)"^(٦٩).

وهو بذلك يرفض ما ذهب إليه بعضهم بتقسيم (التقديم والتأخير) إلى مفيد وغير مفيد؛ ولأن عبد القاهر يتحدث عن لغة الشعر؛ فهو يرفض تقنيات النحاة وقواعدهم؛ لأنها لا تصلح أن تطبق على تلك الإحساسات المتغيرة المتجددة المصوغة للغة غير لغة الإخبار، التي تجري على هذه القواعد، ومن هنا يرفض القول: (إن سبب التقديم والتأخير مجرد العناية والاهتمام)؛ فلكل تقديم وتأخير سببه البلاغي الذي يراعى فيه مقتضى الحال.

وَأُمَثِّلُ بِشَاهِدٍ مِنْ شِعْرِ الْمَعَرِّي؛ لِأَبَيِّنَ أَنَّ (التقديم والتأخير) في الشعر ليس لمجرد العناية والاهتمام، يقول المعري: (الطويل)

أَقْلُ صُدُودِي أَنَّنِي لَكَ مُبْغِضٌ وَأَيْسَرُ هَجْرِي أَنَّنِي عَنْكَ رَاحِلٌ

إِذَا هَبَّتِ النَّكْبَاءُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فَأَهْوَنُ شَيْءٍ مَا تَقُولُ الْعَوَازِلُ^(٧٠)

لقد لجَّ المعري في خصامه؛ فكان هذان البيتان بكل ما يحملان من دلائل الحقد

والغضب على المقصود أو المهجو.

إن المعنى الشعري الذي يريده المعرِّي نستطيع تبيانَه بغير طريقة، وبأساليب متعددة ممكنة منها:

- بغضي لك أقل صدودي.
- أقل صدودي أنني مبغض لك.
- إنني مبغض لك وذا أقل صدودي.
- إنني مبغضك.
- إنني أبغضك.

إلا أن نظم أبي العلاء هذه الصورة له رونقه الشعري، وبهاؤه الخاص، الذي يُفصِّحُ عن المعري، أو قُلْ: خصوصيته الشعرية.

إن البدء بأقل صدودي يدفعنا دفعاً إلى الانتباه والاستماع إلى ما سيقوله الشاعر عن هذا الأقل من صدوده، والذي هو مُبْهَمٌ غامض حتى الآن.

فهنا (أقل): أفعل تفضيل، ثم تأتي (إنني) لتؤكد رؤيته وخبرته فلا تدع مجالاً لذي ريبة في أن ما سيقوله بوصفه تعريفاً لأقل صدوده شيء عارض أو وقتي أو غيره، لكنه تأكيد في تأكيد.

(أَقْلُ صُدُودِي أَنَّنِي)، ثُمَّ اختصاصه بهذا البُغْضِ؛ زيادةً في التَرْقُبِ (لك)، وبها يتجه الحديث إلى المُخَاطَبِ الذي لا يعرف حتى الآن أقل صدود يأتي به أبو العلاء، إلا أنه انتبه بتقديم (لك) إلى أن مَنْ يعنيه بأقل صدوده لا هو المُخَاطَبُ؛ فيشرَّب مترقباً للكلمة الثقيلة التي سيلقيها المعري عليه؛ فيأتي باسم الفاعل (مُبْغِض)، الذي يدل على ثبات وديمومة صفة (البُغْض) عند المعرِّي؛ فهي لا تتغير أو تتجدد؛ لأنَّ

في التجدد ما يوحى بالزيادة أو النقصان ؛ فهي مثل قول الشاعر: (البسيط)

لَا يَأْلَفُ الدَّرْهَمُ الْمَضْرُوبُ خِرْقَتَنَا، لَكِنْ يَمُرُّ عَلَيْهَا وَهُوَ مُنْطَلِقُ^(٧١)

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [سورة الكهف: آية ١٨] ؛ فَلَا يَصْلُحُ هُنَا الْفِعْلُ (يَبْسُطُ) ؛ لِأَنَّ فِيهِ مَعْنَى الْحَيَاةِ وَالتَّجَدُّدِ، كَذَلِكَ (مُبْغِضٌ) لَفْظٌ فِيهِ ثَبَاتٌ عَلَى الْبُغْضِ وَاسْتِمْرَارِهِ، وَكَذَلِكَ اخْتَارَهُ لِأَنَّهُ يَحْمِلُ مَخَارِجَ صَوْتِيَّةٍ أَثْقَلُ مِنْ كَارِهِ وَمُهْمَلٍ، إِنَّ قُلْنَا إِنَّ (Onomatopoeia) اللفظ لها أثرها في الجمال الشعري، وَإِنْ كَانَ عَبْدُ الْقَاهِرِ أَهْمَلُ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ؛ فَإِنَّهُ أَشَارَ فِي بَدَايَةِ كُلِّ شَطْرٍ فِي الْبَيْتَيْنِ إِلَى ذَاتِ الشَّاعِرِ، وَنَفْسِيَّتِهِ، وَرُؤْيِيَّتِهِ لِمَا فِي نَفْسِهِ تَجَاهَ الْآخِرِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: (إِنِّي لَكَ مُبْغِضٌ فَذَا أَقْلُ صُدُودِي).

إِلَّا أَنَّهُ يَرَبَّأُ بِنَفْسِهِ عَنْ أَنْ يَقْدُمَ مَكَانَهُ الْآخِرَ (المُبْغِضُ)، وَلَوْ هَجَاءً وَتَقْرِيعًا ؛ فَمَا يَهْمُهُ رَأْيُهُ هُوَ أَوَّلًا، وَانْطِبَاعُهُ هُوَ أَوَّلًا، بِوصفه شَاعِرًا مُخَاصِمًا ؛ فَنَجِدُهُ يُعَبِّرُ عَنْ أَهْمِيَّةِ الْآخِرِ لَدَيْهِ أَوْ عَدَمِ أَهْمِيَّتِهِ فِي نِهَايَةِ كُلِّ شَطْرٍ، وَكَأَنَّهُ يَضَعُهُ فِي نِهَايَةِ اهْتِمَامِهِ وَشَوَاغِلِهِ وَتَفَكِيرِهِ، بَلْ هُوَ يَضَعُهُ هُنَاكَ بِالْفِعْلِ.

وَقَدْ يَتَعَجَّبُ قَارِئُ الْبَيْتَيْنِ لِمَخَاطَبَةِ الْمَعْرِيِّ الْآخِرِ مِنَ الشَّطْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبَيْتِ الثَّانِي بـ (بينكم)، وَمَا بَهَا مِنْ تَفْخِيمٍ وَتَقْدِيرٍ، إِلَّا أَنَّهُ هُنَا إِحْدَى الْوَسَائِلِ الشَّعْرِيَّةِ الْمَعْهُودَةِ لِلتَّقْلِيلِ لَا لِلتَّعْظِيمِ أَوْ التَّقْدِيرِ، وَنَلَاظُ كَثْرَةِ أَفْعَالِ التَّفْضِيلِ فِي الْبَيْتَيْنِ: (أَقْلُ) وَ(أَيْسَرُ) وَ(أَهْوَنُ)، وَهِيَ كُلُّهَا تَحْمِلُ مَعْنَى التَّحْقِيرِ أَوْ قِلَّةِ شَأْنِ الْآخِرِ.

كُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى تَعَانُقِ الْكَلِمَاتِ وَاتِّصَالِهَا بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَجَعَلَ بَعْضُهَا بِسَبَبٍ مِنْ بَعْضٍ، وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لَيْسَ فِيهَا سَبْقُ شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ بِهِ عَبْدُ الْقَاهِرِ مِنَ (التَّحْقِيرِ وَالتَّأْخِيرِ) وَأَثَرُهُ فِي زِيَادَةِ الْمَعْنَى ؛ وَلِذَا أَسْوَقُ مِثْلًا مِنْ عِنْدِ عَبْدِ الْقَاهِرِ ؛

لأَيِّنَ الاختلاف بينه وبين النحويين في دراسة (التقديم والتأخير)، الذي به يكون الحُسْنُ والمَزِيَّةُ والقَبُولُ، ومثال ذلك عند عبد القاهر قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ (سورة الأنعام: آية ١٠٠).

يقول عبد القاهر: "ليس بخافٍ أن لتقديم (الشُّركاءِ) حُسْنًا وروعةً، ومأخذًا من القلوب، أنت لا تجد شيئًا منه إن أنت أحرَّت فقلت: (وجعلوا الجنَّ شركاءَ الله)، وأنت ترى حالَكَ حالَ مَنْ نُقِلَ عن الصورةِ المُبْهَجةِ والمنظرِ الرائقِ والحُسْنِ الباهرِ، إلى الشيءِ الغُفْلِ الذي لا تحلِّي منه بكثيرٍ طائلٍ، ولا تصيرُ النفسُ به إلى حاصلٍ. والسببُ في أن كانَ ذلكَ كذلكَ، هو أن للتقديم فائدة شريفة ومعنى جليلاً لا سبيلَ إليه مع التأخير" (٧٢).

وهذا هو الاختلاف بين الذي يرى للتقديم فائدة شريفة ومعنى جليلاً، والذي يرونه لمجرد العناية والاهتمام.

يتابع عبدُ القاهر الفرق بين الآية والصورة الثانية التي ينعدم فيها التقديم ؛ فيقول: "إنا وإن كنا نرى جملةَ المعنى ومحصولَه أنهم جعلوا الجنَّ شركاءَ، وعبدوهم مع الله تعالى، وكان هذا المعنى يحصلُ مع التأخيرِ حصولَه مع التقديم ؛ فإنَّ تقديمَ (الشركاءِ) يفيدُ هذا المعنى، ويفيدُ معه معنى آخر، وهو أنه ما كانَ ينبغي أن يكونَ لله شريكٌ، لا من الجن ولا غير الجن.

وإذا أحرَّ فقول: (جعلوا الجنَّ شركاءَ الله)، لم يفد ذلكَ، ولم يكن فيه شيءٌ أكثر من الإخبارِ عنهم بأنهم عبدوا الجنَّ مع الله تعالى، فأما إنكارُ أن يُعبدَ معَ الله غيره، وأن يكونَ له شريكٌ من الجنِّ وغير الجنِّ، فلا يكونُ في اللفظِ مع تأخيرِ (الشركاءِ)" (٧٣).

ويتابع عبد القاهر مستشهداً بنماذج أُخرى لتحليل الآية ؛ فيرى أن في حالة

محاولة وجود شركاء مُقَدَّمة، تنفي مطلق الشرك عن الله سبحانه وتعالى، أما في حالة تأخيرها ؛ فهي تنفي فقط شَرِكَةَ الجن لله، لكنها لا تنفي غيرها ؛ فإذا جعل الآية على هذا التركيب (شركاء لله الجن)، وجعلنا الصورة الثانية: (الجن شركاء لله)، وأوقعنا النفي على الصورتين: (لا شركاء للهاجن)، و(ليس الجن شركاء لله) ؛ الصورة الأولى: تنفي مُطلقَ الشراكة، أما الصورة الثانية: فهي تنفي شركة الجن فقط ؛ ومن ثمَّ فالتقديم دَلٌّ على كَثِيرٍ من المعاني التي ما كان يقولها إلا بكثير من الألفاظ.

ويعقب عبد القاهر قائلاً: "فانظر الآنَ إلى شَرَفٍ ما حَصَلَ من المعنى بأن قُدِّمَ (الشركاء)، واعتبره فإنه يَنْبَهُكَ لكثيرٍ من الأمور، ويدُلُّكَ على عِظَمِ شأنِ (النظم)، وتعلمُ به كيف يكونُ الإيجازُ به وما صُورَتُهُ؟ وكيف يَزَادُ في المعنى من غير أن يَزَادَ في اللفظ ؛ إذ قد تَرَى أن ليسَ إلاّ تقديمٌ وتأخيرٌ، وأنه قد حَصَلَ لك بذلك من زيادة المعنى، ما إن حاولتَ مع تَرْكِهِ لم يحصلُ لك، واحتجتَ إلى أن تَسْتَأْنِفَ له كلاماً" (٧٤).

وقوله (تستأنف له كلاماً)، أي إذا غيرت شكل الآية احتجت إلى أن تزيد الألفاظ ؛ لِتُعَبِّرَ عن المعنى المُراد، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ؛ فإذا أردت أن تُؤَخِّرَ (إِيَّاكَ) لا بُدَّ من أن تستأنف كلاماً لتدل على نفس المعنى، فتقول معنى الآية: نَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ في العبادة، وقد شرح ابن قَيِّم الجوزية هذه الآية في كتابه (مدارج السالكين) (٧٥).

هذا هو الفرق بين (التقديم والتأخير) عند النُّحاة ؛ فالنحو هو العلم الذي يُبَيِّنُكَ متى يجب التقديم، ومتى يجوز، ويقفك على شروط ذلك كله، هذا عمل النُّحاة يحفظون لك القول من الخطأ والفساد ؛ فإن أحبوا التقديم وأخرت، أو التأخير وقدمت، أفسدت الكلام، وإن جَوَّزُوا لك التقديم أو التأخير فأنت تنظر

بعين البلاغة في النسق المعتاد للكلام ؛ فتلزمه إن كان لا بد لك من أن تلزمه، وتخرج عليه إن كان لا بد لك من أن تخرج، والأصل في الكلام الترتيب المعتاد، لا تخرج عليه إلا لِنُكْتَةٍ بلاغية^(٧٦)، وقد يَبِّنُ عبد القاهر سبب الخروج على معتاد الكلام، ولم يقف عند قول النُّحَاة هناك تقديم وهناك تأخير.

لقد تأمل عبد القاهر طويلاً في قول ابن جني: (إِنَّا نَعْدِلُ عن وضع إلى آخر للاتساع والتوكيد)، وذهب إلى أن اللغة المثالية تقوم على التوكيد^(٧٧).

اهتم عبد القاهر بالحذف، وأوضح أغراضه البلاغية في الفصل الذي عقده له، وفي هذا الفصل نقل الشواهد التي جاءت في الكتاب لسيبويه، مستشهداً بها على الغرض البلاغي لهذا الأسلوب، وتابع سيبويه، ونقل عنه في بعض الأحيان نقلاً حرفياً، ولكن دوره لا يقف عند رصد الحذف فقط ؛ لأنه يُجَلِّلُهُ، وَيَبِّينُ الجمال فيه، الذي يختفي لو لم يكن الحذف.

استوقفت صيغة القصر عبد القاهر ؛ فأفاض فيها، وَيَبِّنَ أغراضها، لا القصر الموجود عند النُّحَاة، وإنما القصر عند البلاغيين، وسبب اهتمامه بصيغة القصر: "أنه قارئ للقرآن الكريم بالمعنى الذي يُسَمَّى في الدراسات الحديثة باسم القراءة الفاحصة"^(٧٨).

كذلك بذل عبد القاهر جهداً عظيماً - غير مسبوق إليه - في دراسته للفصل والوصل بين الجُمَل ؛ لأنه "استخلص مجموعة من المبادئ العامة - مهما يكن الرأي فيها - تحكُّمُ حالتها: الفصل والوصل بين الجُمَل، وفيها تمتزج قواعد النحو الشكلي بالتحليل الأدبي للأساليب"^(٧٩).

يقول عبد القاهر: "اعْلَمْ أَنَّهُ ما من عِلْمٍ من علوم البلاغة أنت تقول فيه: (إنه

خَفِيٌّ غَامُضٌ، وَدَقِيقٌ صَعْبٌ) إِلَّا وَعِلْمُ هَذَا الْبَابِ أَغْمُضٌ وَأَخْفَى وَأَدْقُ وَأَصْعَبُ،
وَقَدْ قِنَعَ النَّاسُ فِيهِ بِأَنْ يَقُولُوا إِذَا رَأَوْا جُمْلَةً قَدْ تَرَكَ فِيهَا الْعَطْفَ: (إِنَّ الْكَلَامَ قَدْ
اسْتَوْفَنَ وَقُطِعَ عَمَّا قَبْلَهُ)، لَا تَطْلُبُ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُ زِيَادَةَ عَلَى ذَلِكَ" (٨٠).

وَلَمْ يَقِفْ عَبْدُ الْقَاهِرِ عِنْدَ هَذَا الْقَوْلِ الْمُبْهَمِ، وَلَكِنَّهُ حَلَّلَ، وَبَيَّنَّ سَبَبَ الْفَصْلِ
وَالْوَصْلَ، وَانْتَهَى إِلَى أَنْ: "تَرَكَ الْعَطْفَ يَكُونُ إِمَّا لِلاتِّصَالِ إِلَى الْغَايَةِ، وَإِمَّا لِلانْفِصَالِ
إِلَى الْغَايَةِ، وَالْعَطْفُ لِمَا هُوَ وَاسِطَةٌ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، وَكَانَ لَهُ حَالٌ بَيْنَ حَالَيْنِ" (٨١).

تَحَدَّثَ عَبْدُ الْقَاهِرِ عَنْ فُرُوقِ الْخَبَرِ، يَقُولُ: "وَهَذَا فَنٌّ عَجِيبُ الشَّأْنِ، وَلَهُ مَكَانٌ
مِنَ الْفَخَامَةِ وَالنَّبْلِ، وَهُوَ مِنْ سِحْرِ الْبَيَانِ الَّذِي تَقْصُرُ الْعِبَارَةُ عَنْ تَأْدِيَةِ حَقِّهِ،
وَالْمَعْوَلُ فِيهِ عَلَى مَرَاجَعَةِ النَّفْسِ وَاسْتِقْصَاءِ التَّأْمُلِ" (٨٢).

وَبَدَأَ بِضَرْبِ أَمْثَلَةٍ لِيُبَيِّنَ الْفُرُوقَ حَالَةَ أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ (فِعْلًا) أَوْ (اسْمًا)، وَالْجَمَالَ
فِي هَذَا وَفِي ذَاكَ، ثُمَّ قَالَ: "اعْلَمْ أَنَّهُ رَبَّمَا اشْتَبَهَتِ الصُّورَةُ فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ مِنْ هَذَا
الْبَابِ؛ حَتَّى يُظَنَّ أَنَّ الْمَعْرِفَتَيْنِ إِذَا وَقَعَتَا مَبْتَدَأً وَخَبَرًا، لَمْ يَخْتَلِفِ الْمَعْنَى فِيهِمَا بِتَقْدِيمِ
وَتَأْخِيرِ؛ وَمَا يُؤْهِمُ ذَلِكَ قَوْلَ النُّحَوِيِّينَ فِي (بَابِ كَانَ): (إِذَا اجْتَمَعَ مَعْرِفَتَانِ كُنْتَ
بِالْخِيَارِ فِي جَعْلِ أَيْمَاهُمَا شَيْئًا اسْمًا، وَالْآخَرُ خَبَرًا)" (٨٣).

وَيَرْفُضُ عَبْدُ الْقَاهِرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ لِلْعِبَارَتَيْنِ مَزِيَّةٌ عَلَى الْآخَرَى؛ حَتَّى
يَكُونَ لَهَا فِي الْمَعْنَى تَأْثِيرٌ لَا يَكُونُ لِصَاحِبَتِهَا، وَمَرَجَعَ ذَلِكَ إِلَى مَا "تَوَخَّيَ فِي نَظْمِ
الْلَفْظِ وَتَرْتِيبِهِ" (٨٤)، وَإِنْ اخْتَلَفَ بِنَاءُ الْعِبَارَتَيْنِ لَا بَدَّ مِنْ اخْتِلَافِ الْمَعْنَى وَلَنْ يُوْدِيَا
مَعْنَى وَاحِدًا (٨٥).

وَقَفَّ عَبْدُ الْقَاهِرِ أَمَامَ اسْمِ الْمَوْصُولِ (الَّذِي)، وَاسْتَفَاضَ فِي تَحْلِيلِهِ وَبَيَانِ الْجَمَالَ
حِينَ يَلْجَأُ إِلَيْهِ الْأَدِيبُ (٨٦).

كان عبد القاهر - إذن - شاخصاً إلى نحو يُتَوَصَّلُ به إلى الإعجاز، ويقع به على الجمال اللغوي الكامن في العلاقات والاتحاد بين المفردات، وهو يقتحم بذلك منطقة البلاغة، ويخطُّ الخط الفاصل بينها وبين النحو، جاعلاً منها علماً واحداً، يقول: "أما من كان لا يفقد من أمر (النظم) إلا الصَّحَّةَ المطلقة، وإلا إعراباً ظاهراً، فما أقل ما يُجدي الكلام معه ؛ فَلْيَكُنْ مَنْ هذه صِفَتُهُ عندك بمنزلة مَنْ عَدِمَ الإحساسَ بوزن الشعر، والذوق الذي يُقيمه به" (٨٧).

وسبب ذلك أنه باحثٌ في الإعجاز، أو - كما يقول - النمط العالي والكلام الشريف الذي اتحدت أجزاؤه، وأُفْرِغَتْ إفراغاً واحداً، ودَقَّ فيه الصُّنْع، وارتبط ثانٍ فيه بأول، وغير ذلك من أوصاف تدل على الانحراف عن هذه اللغة التقريرية التي الطريق إلى معرفتها ليس العقل، وإنما النقل المحض، أو استنباط العقل من النقل، وأما العقل الصرف ؛ فلا مجال له في ذلك ؛ لأن دلالتها هي تتابع الاصطلاح والتواضع ؛ ولأنها كذلك قابلة للفهم من جميع الناس ما داموا قد حَصَلُوا بطريق النقل ؛ ولأنها كذلك أيضاً فإن المقصود بها واحد عند الجميع ؛ لأن الواضع لم يترك للمتكلم - في استخدامه العادي للغة - حرية التغيير، كما لم يمنح السامع فرصة لفهم ما يسمع (٨٨).

ولذلك فعبد القاهر لا يبحث في هذه اللغة ولكنه يبحث عن الإعجاز، عن اللغة الفنية، التي يتجاوز فيها الناقد البحث عن الصحة والخطأ، إلى التعليم والبحث عن الجمال. وصفات هذه اللغة مختلفة عن اللغة العادية ؛ فاللغة العادية إخبارية وطريق فهمها النقل، أما الأدبية فتأثيرية وطريق الوصول إليها العقل، الإخبارية مثالية نمطية تقريرية، الأدبية منحرفة لاحقة فردية.

المعنى ليس الأساس في اللغة الأدبية، ولكن طريق الإحساس بالمعنى، وليس معنى ذلك أن اللغة الأدبية خالية من الأفكار، وإنما هي نسيج خاص مغزول من لحمة اللفظ وسدى المعنى لا انفصال لأحدهما عن الآخر.

ولأن عبد القاهر مدرك لذلك ؛ فكان لا بد من تلك الإضافات لعلم النحو ؛ حتى يجعله صالحاً للاهتمام به إلى الإعجاز والجمال.

بهذا الفهم للنحو وللغة نجد "اللغة - عنده - أوثق اتصالاً بالشعر منها بالمنطق، وأن النحو عنده أكثر ارتباطاً بعلم المعاني والبلاغة منه بالقواعد المنطقية الجامدة، التي لا تسمح بأي دور دلاليٍّ ثانويٍّ" (٨٩).

ومن هنا فعبد القاهر يرفض فكرة الألفاظ المفردة وينفي قيمتها، ومفهوم النحو - عنده - غير مفهومه عند السابقين، وينظر إلى اللغة نظرة توحيدية موحداً بين عناصرها، نافياً ما يقال فيها من ثنائيات، يقول: "اعلم أن مثلَ واضع الكلام مثلُ مَنْ يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة فيُذِيبُ بعضها في بعض حتى يصير قطعةً واحدةً" (٩٠).

المَبْحَثُ الرَّابِعُ: نَظَرَةُ عَبْدِ الْقَاهِرِ التَّوْحِيدِيَّةُ لِللُّغَةِ:

لقد نظر عبد القاهر الجرجاني إلى لغة الأدب نظرة توحيدية ؛ فلا انفصال - عنده - بين اللفظ والمعنى والصورة والسياق، ونظرية (النظم) - عنده - تتلخص في إيجاز شديد "في التوحيد بين اللغة والشعر والتقاء فلسفة الفن بفلسفة اللغة. . . وهذه النظرية تستند إلى التفرقة بين استعمال اللغة بقصد الإشارة، واستعمالها للتعبير عن الانفعال، أو بعبارة أخرى: التفريق بين الألفاظ التي تكتفي بمجرد الإشارة الباردة إلى الشيء، والألفاظ التي تُعبرُ عن حقيقة الشيء" (٩١).

لقد فهم عبد القاهر الأدب على أنه لغة في نمطها العالي الشريف؛ ولذا دافع عن

النحو دفاعاً شديداً؛ لأنَّ به يُتَوَصَّل إلى الجمال، ليس النحو الباحث عن الصحة والخطأ، ولكن النحو الشاخص إلى الجمال؛ ولذا فلا بد من التقاء الفن واللغة على هذا النحو، والتوحيد بينهما هو وسيلة الناقد الحصيف إذا أراد أن يكشف أسرار التعبير الأدبي وخفاياه^(٩٢).

لقد كانت نظرة عبد القاهر للغة "نظرة أكثر رحابة وغنى؛ فلم يقتصر على اللغة الملفوظة، ولا على مجرد الدلالة على معانٍ عقلية منطقية، ولا على الاعتماد على قواعد النحو ومجرداته"^(٩٣)، وإنما نَظَرَ إلى اللغة في كامل رحابتها بوصفها مستودعاً للإحساس، والمُعَبَّر عنه، ولا بد من أن يكتسب المتكلم خصوصية في التعبير لخصوصية الأحاسيس، وهذه الخصوصية التعبيرية لا تأتي إلا بإسناد الكلام بعضه إلى بعض إسناداً يدل على إمكانات الأديب اللغوية، وباستخدامه الخاص للغة يرى المحبوبة قمرًا، والممدوح الشجاع أسداً، والكريم بحرًا لا على أساس التزيين والتحلية، وإنما على أساس الإحساس بالممدوح والمحبوبة على هذه الشاكلة؛ فهو لا يبالغ في وصفها، وإنما أصبحت اللغة - على حقيقتها - عاجزة عن التعبير، وكان لا بد - وهو القدير على اللغة - من لغة تُعَبِّر عن إحساسه؛ فقال بما سبق لا انحرافاً عن الأصل، وإنما للتعبير عن إحساس يفوق إحساس الآخرين، وأليس الشاعر هو الذي يشعر بما لا يشعر به الآخرون؟ ولأنه كذلك فكان لا بد من أن يعبر عن شعوره هذا بطريقة هو مستخدماً الخصائص الأدبية في اللغة التي تكافئ إحساسه بالشيء؛ لأن الانفعال وهو يبحث لنفسه عن مخرج إنما يبحث لنفسه عن لغة خاصة به قادرة على أن تؤدي منحنياته الخاصة، ولا تصلح اللغة العامة التي يستخدمها الناس جميعاً لتحقيق هذه الغاية؛ ذلك لأنها بحكم طبيعتها لا توصل إلا العام والنمطي، ولا تؤدي الخاص أو الفردي، والانفعال خاصٌ وفردِيٌّ بحكم

طبيعته ؛ لذلك فإن الخصوصية التي يتميز بها انفعال الأديب تفرض عليه أن يبحث لنفسه عن لغة متميزة تُعبر عن خصوصية انفعاله^(٩٤).

ومن هنا فاللغة في استعمالها الخاص (هي الفن)، ولا انفصال للفن عن اللغة، ولا يستطيع قارئ عبد القاهر إلا أن يقول ذلك؛ لأن عبد القاهر لا يفصل بين الفن واللغة ؛ فالشاعر - عنده - يزيل عن اللغة صفة الإخبار، مثل المثال الذي يزيل عن الصخر صخريته التي كان مأسوراً فيها، وما على الفنان المبدع إلا أن يُفكَّ أسر قطعته الفنية الرائعة من هذه الأغلال والقيود (الصخرية)، كذلك الشعر يبحث عن حقيقة غائبة، عن جمال خفي متخفٍ ما إن يُصوَّره في لغة حتى يحمره ويفكَّ أسره بتعبير يدهشنا ويشعرنا بجمال التعبير ؛ لأن المعاني في الأدب مطروحة في الطريق، غير منظور إليها.

ومن هنا فاللغة عند الشاعر غير ذات قيمة إن كانت للإخبار مثل حديث الناس ؛ فهذه اللغة الإخبارية وسيلة، أما الشاعر فيستخدم اللغة الفرشاة - إن جاز لي التعبير - وهو الكائن الذي استطاع أن يصنع من اللغة فناً خالداً، لقد اكتشف فيها جمالاً ما كان ليوجد إلا باستعماله الخاص لها، المُوَحِّد بين عناصرها، ومن هنا فالشعر لغة ليس كمثلهما لغة ؛ فهو لغة التفرد والتوحد، والقرآن هو اللغة الخاصة، أو أخص الخصوص في التعبير.

ولا نظم في الكلام ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض^(٩٥)، وليس النظم معناه ضم الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتفق ؛ ولذلك كان عندهم نظيراً للنسج، والتأليف، والصياغة، والبناء، والشبي، والتحجير، وما أشبه ذلك ممَّا يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض^(٩٦)، والنظم والترتيب في الكلام

عمل يعملهُ مؤلّف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظها، وهو بما يصنع في سبيل من يأخذ الأصباغ المختلفة فيتوخى فيها ترتيباً يحدث عنه ضروب من النقش والوشي^(٩٧)، ويقول أيضاً: "اعلم أنّ ما هو أصل في أن يدقّ النظر، ويغمّض المسلك، في توخّي المعاني التي عرفت: أن تتحدّ أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتدّ ارتباط ثانٍ منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحداً"^(٩٨).

والتمثيل الذي مثّل به خير دليل على هذا الاتحاد، والفردية في استعمال ما هو مشترك بين الناس، هذا الاتحاد/ التوحيد/ التوحد/ التواحد في الصهر والمزج وإذابة المفردات بعضها في بعض بحيث لا يستطيع أحد أن يرجعها إلى عناصرها الأولية مثل السكر المذاب في ماء، ويضرب عبد القاهر أمثلة كثيرة على ذلك، مثل قول بشار (ت ١٦٨ هـ): (الطويل)

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

يقول عبد القاهر مستنكراً أن يكون التفكير في المفردات عارية من النظم: "انظر هل يُتصوّر أن يكون بشار قد أخطَر معاني هذه الكلم بباله أفراداً عارية من معاني النحو التشبيه منه على شيء، وأن يكون فكّر في (مثال النقع)، من غير أن يكون أراد إضافة الأول إلى الثاني، وفكر في (فوق رؤوسنا)، من غير أن يكون قد أراد أن يُضيف (فوق) إلى (الرؤوس)، وفي (الأسياف) من دون أن يكون أراد عطفها بالواو على (مثار)، وفي (الواو) من دون أن يكون أراد العطف بها، وأن يكون كذلك فكّر في (الليل)، من دون أن يكون أراد أن يجعله خبراً لـ (كأن) وفي (تهاوى كواكب)، من دون أن يكون أراد أن يجعل (تهاوى) فعلاً للكواكب، ثم يجعل الجملة صفةً لليل، ليتمّ الذي أراد من التشبيه"^(٩٩)؛ ولذا فلا يستطيع أحد أن يتدخل بكلمة في البيت.

ويتابع عبد القاهر تحليله للبيت مما يُبين أنه ينظر إلى اللغة، لا على أنها مفردات، وإنما على أنها تراكيب وعلاقات قائمة تنتج كثيرًا من المعاني إن تغيرت تلك العلاقات القائمة بينها.

وأشد منه اتحادًا قول الفرزدق (ت ١١٤هـ): (الطويل)

وَمَا حَمَلَتْ أُمُّ إِمْرِيٍّ فِي ضُلُوعِهَا أَعَقَّ مِنَ الْجَانِيِ عَلَيْهَا هِجَايَا

"لا تتبين لك صورة المعنى الذي هو معنى الفرزدق، إلا عند آخر حرف من البيت ؛ حتى إن قطعت عنه قوله (هجائيا)، بل (الياء) التي هي ضمير الفرزدق، لم يكن الذي تعقله منه مما أراده الفرزدق بسبيل" (١٠٠).

فالذي أعطى بيت الفرزدق هذه الخصوصية التي أثبتتها عبد القاهر هو التركيب والبناء والاتحاد الشديد وإذابة عناصر البيت ومزجها/ عجنها بعضها في بعض؛ بحيث إذا زال عنها هذا التمازج/ المزج / الامتزاج/ الاتحاد زالت الخصوصية، أو الشعرية، أو الأدبية كما يقول (جاكسون).

وقول البُخْتَرِيِّ (ت ٢٨٤هـ): (الطويل)

إِذَا مَا نَمَى النَّاهِي فَلَجَّ بِِ الْهُوَى أَصَاخَتْ إِلَى الْوَاشِيِ فَلَجَّ بِهَا الْهَجْرُ

وهذا النوع من الكلام الذي يَتَّحِدُ في الوضع، ويدقّ فيه الصنع، أو ما يسميه عبد القاهر (النمط العالي من الكلام)، الذي لا تستطيع أن تنفصل عناصره عن بعضها، غير ضرب آخر اجتمعت عناصره، وضم بعضها إلى بعض، لا للاتحاد ولا رغبة من هذا الضم في هيئة وصورة، وإنما خوفاً من التفرق ؛ ورغبة في أن تكون مجموعة في رأي العين، كقول الجاحظ: (جَنَّبَكَ اللهُ الشَّبْهَةَ، وَعَصَمَكَ مِنَ الْحَيْرَةِ،

وجعلَ بينَكَ وبينَ المعرفةِ نَسَبًا، وبينَ الصَّدقِ سَبَبًا^(١٠١).

فلا يوجد الاتحاد المطلوب في لغة الأدب، وإنما هو جمع أجزاء الكلام لتأدية معنى تقريرى / إخبارى.

ينظر عبد القاهر إلى لغة الأدب بوصفها كُلاً لا يتجزأ، وإذا تجزأ ذهب جماله، أو اتحاد لا أجزاء له، وكل عباراته تدل على ذلك: (تتخذ أجزاء الكلام)، و(يذيب بعضها في بعض)، وهو في ذلك قريب مما ذهب إليه (كولردج) في الخيال الثانوي، الذي يذيب ويُلَاشِي ويحطم لكي يخلق من جديد، وحينما لا يتسنى له ذلك؛ فإنه على الأقل يسعى لإيجاد الوحدة، وهذا الخيال يَحُلِّقُ وَحْدَةً بين الأشياء الكثيرة، بينما تفتقد هذه الوحدة في وصف الرجل العادى، الذي لا تتوفر لديه ملكة الخيال لهذه الأشياء^(١٠٢).

اهتدى عبد القاهر إلى هذه النظرة التوحيدية للغة من خلال فهمه للغة على أنها علاقات لا مفردات، ونظرته إلى النحو لا على أنه يبحث الصواب والخطأ، وإنما يبحث عن القيمة؛ ولأنه بحث في هذه اللغة فقد اهتدى إلى أن الأدب فن لغوي يرجع الجمال فيه إلى استخدام اللغة استخدامًا خاصًا، وهذه النظرة إلى المفردات تُوافِقُ ما جاء عند علماء اللغة وفلاسفة اللغة في العصر الحديث.

الخاتمة:

أثبت البحث اختلاف مفهوم عبد القاهر للنحو عن سابقيه ؛ وذلك لأنه باحثٌ عن فروق بين أشكال ثابتة في الدلالة على المعنى، وتعلّق الكلام ببعضها ببعض.

لقد طبق نظريته في تحليل النصوص من خلال فهمه الناضج لمعاني النحو، وارتبط النحو قبل عبد القاهر بالمنطق، وأصبح صناعة يقصد بها الغلبة والتعقيد، وإثبات الفضل.

كانت نظرة ابن جنيّ للغة نظرة عقلية رياضية هدفها وغايتها الوقوف على كليات نظرية للغة لا الوقوف على مطارح الجمال ؛ فهي نظرة قريبة من الفلسفة اللغوية بمفهوم المحدثين.

والنحو عند السيرافيّ ليس النحو الشكليّ، الذي غايته معرفة أواخر الكلمات وحركات الإعراب، ولكنه النحو الذي يبحث عن صحة المعاني من فسادها، أو فلنقل: يبحث في صميم صحة التركيب الدال على المعنى ؛ ولذا فقد جعل النحو ضرباً من المنطق ؛ فالنحو - عنده - منطق يُعرف به صحّة التراكيب؛ فقد أدخل المنطق في النحو، وجعل النحو شاخصاً إلى المعنى ؛ وذلك لأنه لغويّ فقيّه نحويّ مُتكلّم، عالم بالمنطق، بارع في الجدل وفن المناظرة.

وتجاوز عبد القاهر مفهوم النحو عند القدماء ؛ لأن النحو - عنده - أصبح طريق الوصول إلى إعجاز القرآن، والصاد عنه والمزهد فيه، صادٌّ عن كتاب الله، وجعل النحو شاخصاً إلى الصّحّة وجمال التعبير، ووسيلة من وسائل استغلال الطاقة في اللغة، ومحاولة استخلاص الإمكانيات المتاحة من هذه الطاقة.

وتمثل تجاوز عبد القاهر للقدماء في النحو في: تجاوزه للغاية من التقديم

والتأخير ؛ فقد قالوا إنه لمجرد العناية والاهتمام ؛ فعَلَّلَ كيف تكون العناية والاهتمام ؛ فلكل تقديم وتأخير سببه البلاغي الذي يُرَاعَى فِيهِ مُقْتَضَى الْحَالِ، وتجاوز مفهوم الفصل والوصل، وتجاوز مفهوم الحذف والذكر.

كان عبد القاهر حريصاً على بيان الفروق الجمالية للنحو الإبداعي، وتحليل تلك الفروق التي تُكوِّنُ نحواً إبداعياً، لا تعقيداً أو تعقيداً، وكان شاخصاً إلى نحو يُتَوَصَّلُ به إلى الإعجاز، ويقع به على الجمال اللغوي الكامن في العلاقات والاتحاد بين المفردات، وهو يقتحم بذلك منطقة البلاغة، ويُحَطِّمُ الخط الفاصل بينها وبين النحو، جاعلاً منهما علماً واحداً.

إن عبد القاهر يبحث عن اللغة الفنية، التي يتجاوز فيها الناقد البحث عن الصحة والخطأ، إلى التعليم والبحث عن الجمال؛ لذا فاللغة - عنده - أوثق اتصالاً بالشعر منها بالمنطق، وأن النحو عنده أكثر ارتباطاً بعلم المعاني والبلاغة منه بالقواعد المنطقية الجامدة، التي لا تسمح بأي دور دلالي ثانوي.

هوامش البحث:

- (١) ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م، ٢/ ١٥٧.
- (٢) البدرآوي زهران: عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني؛ المفتن في العربية ونحوها، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٧م، ص ٣٨.
- (٣) حلمي خليل: العربية وعلم اللغة البنيوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨م، ص ١٢٣.
- (٤) الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، المكتبة التجارية، القاهرة، د. ت، ٤/ ١١٦.
- (٥) انظر: ابن الأنباري: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط ٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص ٦٢.
- (٦) انظر: عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، دار المدني، جدة، ط ١، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، ص ٧١ - ٧٢.
- (٧) انظر: عبد القادر حُسين: أثر النُّحاة في البحث البلاغي، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- (٨) انظر: أحمد سعد محمد سعد: الأصول البلاغية في كتاب سيبويه، وأثرها في الدرس البلاغي، رسالة ماجستير، كلية البنات، جامعة عين شمس، ١٩٩٠م.
- (٩) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص ٧١ - ٧٢.
- (١٠) مصطفى مندور: اللغة بين العقل والمغامرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط ١، د. ت، ص ٣.
- (١١) ابن الجُرَّاح: الورقة، تحقيق عبد الوهاب عزام، عبد الستار أحمد فراج، سلسلة ذخائر العرب (٩)، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م، ص ٢٦.
- (١٢) عبد الفتاح لاشين: التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٠م، ص ٣٢.
- (١٣) المرجع السابق، ص ٣٣.
- (١٤) القفطي: إنباء الرُّوَاة على أنْبَاءِ النُّحَاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ٢/ ٤٢.
- (١٥) الجاحظ: الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م، ١/ ٩١ - ٩٢.
- (١٦) محمد الطنطاوي: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٥م، ص ٢٠٢.
- (١٧) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية،

- القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م، ٣/٥.
- (١٨) أبو حيان التوحيدى: المقابسات، تحقيق حسن السندوبى، دار سعاد الصباح، الكويت، ط ٢، ١٩٩٢ م، ص ١٧٧.
- (١٩) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
- (٢٠) أبو حيان التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة، اعتنى به وراجع هيثم حليفة الطعيمي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م، ٩٣.
- (٢١) أبو حيان التوحيدى: المقابسات، ص ١٢١ - ١٢٢.
- (٢٢) محمود فهمي زيدان: في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط ٥، ١٩٩٨ م، ص ١٧٥.
- (٢٣) عبد الفتاح لاشين: التراكيب النحوية، ص ٣٩.
- (٢٤) انظر: المرجع السابق، ص ٥١.
- (٢٥) ياقوت الحموي: معجم الأديباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٣ م، ٢/٥٥١.
- (٢٦) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص ٧٣.
- (٢٧) المعري: رسالة الملائكة، تحقيق محمد سليم الجندي، دار صادر، بيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ص ٤٢.
- (٢٨) حلمي خليل: العربية وعلم اللغة للبنوي، ص ٤٩ - ٥٠.
- (٢٩) خلف الأحمر: مقدمة في النحو، تحقيق عز الدين التنوخي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م، ص ٣٣ - ٣٤.
- (٣٠) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٩ م، ص ٣٢.
- (٣١) أبو حيان التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة، ص ٩٠.
- (٣٢) المصدر السابق، ص ٩٣.
- (٣٣) المصدر نفسه، ص ٩٦.
- (٣٤) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٨١.
- (٣٥) المصدر السابق، ص ٥٢٥.
- (٣٦) المصدر نفسه، ص ٤٩ - ٥٠.
- (٣٧) المصدر نفسه، ص ٣٩.

- (٣٨) انظر: محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧٩م، ص ١١٦، ١٦٩.
- (٣٩) انظر: محمود فهمي زيدان: في فلسفة اللغة، ص ١٦٦ - ١٦٩.
- (٤٠) أبو حيان التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة، ص ٩٦.
- (٤١) سيبويه: الكِتَاب (كتاب سيبويه)، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ١/ ٢٦.
- (٤٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
- (٤٣) انظر: محمود فهمي زيدان: في فلسفة اللغة، ص ١٦٧.
- (٤٤) مُحَمَّدٌ غُنَيْمِي هِلَال: النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٦٥.
- (٤٥) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٢٨.
- (٤٦) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
- (٤٧) المصدر نفسه، ص ٢٩ - ٣٠.
- (٤٨) المصدر نفسه، ص ٣٠.
- (٤٩) المصدر نفسه، ص ٣٠ - ٣٢.
- (٥٠) محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ص ٢٨٣.
- (٥١) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٣١.
- (٥٢) محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ص ٢٨٨.
- (٥٣) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص ٧١.
- (٥٤) شكري عياد: اللغة والإبداع، مبادئ علم الأسلوب العربي، انترناشونال برس، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م، ص ٨١.
- (٥٥) خوسيه ماريّا: نظرية اللغة الأدبية، ترجمة حامد أبو أحمد، سلسلة الدراسات النقدية عدد (٢)، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٢٧.
- (٥٦) المتنبي: ديوان أبي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّى ؛ الْمُسَمَّى بِالتَّبَيَّانِ فِي شَرْحِ الدِّيَّانِ، المنسوب إلى الْعُكْبَرِيِّ (ت ٦١٦هـ)، ضَبْطُهُ وَصَحِّحَهُ وَوَضَعَ فَهَارِسَهُ مِصْطَفَى السَّقَا وَإِبْرَاهِيمُ الْإِيَّارِيُّ وَعَبْدُ الْحَفِيزِ شَلْبِي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د. ت، ٣/ ٣٧٨.
- (٥٧) جادامر: تجلّي الجميل، تحرير روبرت برناسكوني، ترجمة سعيد توفيق، المشروع القومي للترجمة (٢٣)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٧م، ص ٢٧٤.
- (٥٨) مصطفى ناصف: النحو والشعر؛ قراءة في دلائل الإعجاز، مجلة فصول؛ مجلة النقد الأدبي،

- الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد (١)، العدد (٣)، جمادى الآخرة ١٤٠١ هـ - إبريل ١٩٨١ م، ص ٣٦.
- ٥٩) زكريا إبراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٨ م، ص ٢٥٧-٢٥٨.
- ٦٠) قنديل: اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، مطبعة لجنة البيان العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٠ م، ص ٢٠٢.
- ٦١) محمد عبد المطلب: البلاغة والأُسْلُوبِيَّة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، القاهرة، ط ١، ١٩٩٤ م، ص ٣٨ - ٦٤.
- ٦٢) البدرأوي زهران: عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني، ص ١٢٨.
- ٦٣) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١٠٧.
- ٦٤) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١٠٧، والنص في (الكتاب) لسيبويه ١/ ٣٤.
- ٦٥) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١٠٨.
- ٦٦) المصدر السابق، ص ١٠٨ - ١٠٩.
- ٦٧) المصدر نفسه، ص ١٠٩.
- ٦٨) حلمي علي مرزوق: الرؤية النقدية والمنهج، ص ٨٤، ضمن الكتاب التذكاري محمد زكي العشماوي؛ إبداعاً وفكراً، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٦ م.
- ٦٩) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١٠٦ - ١٠٧.
- ٧٠) المعري: شروح سقط الزند، تحقيق مصطفى السقا وعبد الرحيم محمود وعبد السلام هارون وإبراهيم الإبياري وحامد عبد المجيد، إشراف طه حسين، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ٣، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، ٣/ ٥٢٠ - ٥٢١.
- ٧١) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ١٧٤.
- ٧٢) المصدر السابق، ص ٢٨٦.
- ٧٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٦ - ٢٨٧.
- ٧٤) المصدر نفسه، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.
- ٧٥) انظر: ابن قَيِّم الجَوْزِيَّة: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- ٧٦) انظر: حلمي علي مرزوق: في فلسفة البلاغة العربية (علم المعاني)، مركز إبداع، دمنهور، ١٩٩٧ م، ص ١٠٤.

- ٧٧) مصطفى ناصف: الوجه الغائب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢ م، ص ٤٢.
- ٧٨) مصطفى ناصف: بين بلاغتين، ص ٤٠٢، ضمن كتاب قراءة جديدة لتراثنا النقدي، أبحاث ومناقشات الندوة التي أقيمت من ٩: ١٥ / ٤ / ١٤٠٩ هـ الموافق ١٩ إلى ٢٤ / ١١ / ١٩٨٨ م، النادي الثقافي الأدبي، جدة، ١٩٩١ م.
- ٧٩) شفيق السيد: البحث البلاغي عند العرب ؛ تأصيل وتقييم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م، ص ٥٨.
- ٨٠) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٢٣١.
- ٨١) المصدر السابق، ص ٢٤٣.
- ٨٢) المصدر نفسه، ص ١٨٣.
- ٨٣) المصدر نفسه، ص ١٨٧.
- ٨٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٨.
- ٨٥) انظر: المصدر نفسه، ص ٢٥٩.
- ٨٦) انظر: المصدر نفسه، ص ١١٩ - ١٢٠.
- ٨٧) المصدر نفسه، ص ٢٩١.
- ٨٨) انظر: عبد الحكيم راضي: نظرية الابتكار في اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١، ١٩٨٠ م، ص ٩٧.
- ٨٩) محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ص ٢٨١.
- ٩٠) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٤١٢ - ٤١٣.
- ٩١) إبراهيم عبد الرحمن: قضايا النقد الأدبي، ص ٦٣، ضمن الكتاب التذكاري محمد زكي العشماوي ؛ إبداعاً وفكراً.
- ٩٢) انظر: محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ص ٢٥٨.
- ٩٣) المرجع السابق، ص ٢٨٠ - ٢٨١.
- ٩٤) انظر: جابر عصفور: المرايا المتجاورة ؛ دراسة في نقد طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ١، ١٩٨٣ م، ص ١٧٥ - ١٧٦.
- ٩٥) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٤٦٦.
- ٩٦) المصدر السابق، ص ٤٩.
- ٩٧) المصدر نفسه، ص ٣٥٩.

- (٩٨) المصدر نفسه، ص ٩٣.
(٩٩) المصدر نفسه، ص ٤١١ - ٤١٢.
(١٠٠) المصدر نفسه، ص ٥٣٥.
(١٠١) انظر: المصدر نفسه، ص ٩٧.
(١٠٢) انظر: محمد مصطفى بدوي: كولردج، سلسلة نوايغ الفكر الغربي رقم (١٥)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨ م، ص ١٥٦، ص ١٥٨.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المَصَادِر:

- * ابن الأنباري، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (ت ٥٧٧هـ).
- ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م. نزهة الألباء في طبقات الأدباء: تحقيق إبراهيم السامرائي. ط ٣. الأردن: الزرقاء: مكتبة المنار.
- * ابن الجراح، أبو عبد الله محمد بن داود (ت ٢٩٦هـ). ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م. الورقة: تحقيق عبد الوهاب عزام: عبد الستار أحمد فراج، سلسلة ذخائر العرب (٩). ط ٣. القاهرة: دار المعارف
- * ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ). ١٩٧٣م. عيون الأخبار: د. ط. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- * ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحنبلي (ت ٧٥١هـ). ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي. ط ٣. بيروت. دار الكتاب العربي.
- * الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ). ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م. الحيوان: تحقيق: وشرح عبد السلام محمد هارون. ط ٢. القاهرة. مكتبة ومطبعة البابي الحلبي.
- * أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن عباس (ت ٤١٤هـ). ١٩٩٢م. المقابسات: تحقيق حسن السندوي. ط ٢. الكويت دار سعاد الصباح.
- * أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن عباس (ت ٤١٤هـ). ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م. الإمتاع والمؤانسة: اعتنى به: وراجع هيثم حليفة الطعيمي د. ط. بيروت: صيدا: المكتبة العصرية.
- * خلف الأحمر، أبو محرز خلف بن حيان (ت ١٨٠هـ). ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م. مقدمة في النحو: تحقيق عز الدين التنوخي. د. ط. دمشق: مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم.
- * سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر البصري (ت ١٨٠هـ). ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. كتاب سيبويه: تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. ط ٣. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- * الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي (ت ٧٩٠هـ). د. ت. الموافقات في أصول الشريعة. د. ط. القاهرة: المكتبة التجارية.
- * عبد القاهر الجرجاني، أبو بكر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١هـ). ١٤١٢هـ - ١٩٩١م. أسرار البلاغة: قرأه: وعلق عليه: محمود محمد شاكر. ط ١. القاهرة: مطبعة المدني. جدة: دار المدني.
- * عبد القاهر الجرجاني، أبو بكر بن عبد الرحمن (ت ٤٧١هـ). ١٩٨٩م. دلائل الإعجاز: قرأه: وعلق عليه: محمود محمد شاكر. ط ٢. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- * القرطبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن فرح الأنصاري (ت ٦٧١هـ). ١٣٨٤هـ

- ١٩٦٤م. الجامع لأحكام القرآن: تحقيق: الأريب إلى معرفة الأديب: تحقيق: إحسان أحمد البردوني. إبراهيم أطفيش. ط ٢. دار الكتب القاهرة: المصرية.
- * القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ). ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م. إنباه الرواة على أنباه النحاة: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط ١. القاهرة: دار الفكر العربي. بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية.
- * المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت ٣٥٤هـ). د. ت. ديوان أبي الطيب المتنبي؛ المسمى بالتبنيان في شرح الديوان، المنسوب إلى العكبري (ت ١١٦هـ): ضبطه وصححه: ووضع فهرسه: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري. عبد الحفيظ شلبي. د. ط. بيروت: لبنان: دار المعرفة.
- * المعري، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سُلَيْمَان (ت ٤٤٩هـ). ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م. رسالة الملائكة: تحقيق محمد سليم الجندي. د. ط. بيروت: دار صادر.
- * المعري، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سُلَيْمَان (ت ٤٤٩هـ). ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م. شروح سقط الزند: تحقيق: مصطفى السقا. عبد الرحيم محمود. عبد السلام هارون. إبراهيم الإبياري. حامد عبد المجيد. إشراف طه حسين. ط ٣. القاهرة: مركز تحقيق التراث: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- * ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ). ١٩٩٣م. معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: تحقيق: إحسان أحمد البردوني. إبراهيم أطفيش. ط ٢. دار الكتب القاهرة: المصرية.
- * البدرائي، زهران. ١٩٨٧م. عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني؛ المفتن في العربية ونحوها. ط ٤. القاهرة: دار المعارف.
- * جابر، عصفور. ١٩٨٣م. المرايا المتجاوزة؛ دراسة في نقد طه حسين: ط ١. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- * حلمي، خليل. ١٩٨٨م. العربية وعلم اللغة البنيوي. د. ط. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- * حلمي، علي مرزوق. ١٩٩٧م. في فلسفة البلاغة العربية (علم المعاني). د. ط. دمنهور: مركز إبداع
- * زكريا، إبراهيم. ١٩٦٨م دراسات في الفلسفة المعاصرة. د. ط. القاهرة: مكتبة مصر.
- * شفيق، السيد. ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م. البحث البلاغي عند العرب؛ تأصيل وتقييم. د. ط. القاهرة: دار الفكر العربي.
- * شكري، عياد. ١٩٨٨م. اللغة والإبداع، مبادئ علم الأسلوب العربي. ط ١. القاهرة: انترناشونال برس.
- * عبد الحكيم، راضي. ١٩٨٠م. نظرية الابتكار في اللغة. ط ١. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- * عبد الفتاح لاشين. ١٩٨٠م. التراكيب

- النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني. د. ط. المملكة العربية السعودية: الرياض: دار الميرخ للنشر.
- * عبد القادر، حُسين. ١٩٩٨ م. أثر النُّحاة في البحث البلاغي. د. ط.، القاهرة: دار غريب.
- * مجموعة مؤلفين. ١٩٩٦ م. محمد زكي العشماوي؛ إبداعا وفكرا. د. ط. القاهرة: هيئة قصور الثقافة.
- * مجموعة مؤلفين. ١٩٩١ م. قراءة جديدة لتراثنا النقدي، أبحاث ومناقشات الندوة التي أقيمت من ٩: ١٥ / ٤ / ١٤٠٩ هـ الموافق ١٩ إلى ٢٤ / ١١ / ١٩٨٨ م، جدة: النادي الثقافي الأدبي.
- * العشماوي، محمد زكي. ١٩٧٩ م. قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث. ط. ١. لبنان: بيروت: دار النهضة العربية.
- * الطنطاوي، محمد. ١٩٩٥ م. نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة. ط. ٢. القاهرة: دار المعارف.
- * عَبْدُ الْمُطَّلِب، مُحَمَّد. ١٩٩٤ م. الْبَلَاغَةُ وَالْأُسْلُوبِيَّة. ط. ١. لبنان: بيروت: مكتبة لبنان ناشرون. القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان.
- * هِلَال، مُحَمَّدٌ غُنَيْمِي. ١٩٩٦ م. النقد الأدبي الحديث. د. ط. القاهرة: دار نهضة مصر.
- * بدوي، محمد مصطفى. ١٩٥٨ م. كولردج، سلسلة نوايغ الفكر الغربي رقم (١٥). د. ط. القاهرة: دار المعارف.
- * زيدان، محمود فهمي. ١٩٩٨ م. في فلسفة اللغة. ط. ٥. لبنان: بيروت: دار النهضة العربية.
- * مندور، مصطفى. د. ت. اللغة بين العقل والمغامرة. ط. ١. الإسكندرية: منشأة المعارف.
- * ناصف، مصطفى. ١٩٩٢ م. الوجه الغائب. ط. ١. القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ثالثاً: المراجعُ الأجنبيَّة المترجمة:
- * جادامر، هانز جيورج. ١٩٩٧ م. تجلّي الجميل، تحرير روبرت برناسكوني: ترجمة سعيد توفيق: المشروع القومي للترجمة (٢٣). د. ط. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- * مُتَنَدِرِس، ج. ١٩٥٠ م. اللغة: ترجمة عبد الحميد الدواخلي: محمد القصاص. د. ط. القاهرة: مطبعة لجنة البيان العربي: مكتبة الأنجلو المصرية.
- * ماريا، خوسيه. ١٩٩١ م. نظرية اللغة الأدبية: ترجمة حامد أبو أحمد: سلسلة الدراسات النقدية عدد (٢). د. ط.، القاهرة: مكتبة غريب.
- رابعاً: الدَّورِيَّات:
- * مصطفى، ناصف. جهادى الآخرة ١٤٠١ هـ - إبريل ١٩٨١ م. النحو والشعر؛ قراءة في دلائل الإعجاز: مجلة فصول: مجلة النقد الأدبي: المجلد (١)، العدد (٣) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- خامساً: الرِّسَالَةُ الْجَامِعِيَّة:
- * أحمد سعد، محمد سعد. ١٩٩٠ م. الأصول البلاغية في كتاب سيبويه، وأثرها في الدرس البلاغي: رسالة ماجستير، القاهرة: كلية البنات، جامعة عين شمس.